ما يجب
أن تعرف عن

تاريخ تونس

من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال

الأستاذ محمد الهادي الشريف

تعريب :

محمد الشاوش - محمد عجينة

الطبعة الثالثة



صدر في سلسلة
"مايجب أن تعرف عن"

جامعة الدول العربية : هارون هاشم الرشيد
تاريخ تونس : محمد الهادي الشريف
ابن سينا : محمد المهدي المسعودي
انتصاب الحماية الفرنسية بتونس : علي المحجوبي

ISBN : 9973 - 19 - 029 - 7

6، شارع عبد الرحمان عزام – 1002 تونس

الفهرس

توطئة

لم نقصد من خلال هذا العمل الرواية المفصلة ولا الوصف المدقق . فغيرنا من المؤرخين قد قام بذلك على أحسن وجه . فاكتفينا بالتذكير في ايجاز بأهم الاحداث التي عرفتها البلاد التونسية وذلك أولا خلال النص ثم في الجدول العام في نهاية الكتاب .

كان شغلنا الشاغل التساؤل عن معنى الاحداث والتنقيب عن الخطوط الكبرى للتركيبة الاجتماعية والسياسية السائدة في كل فترة من فترات تاريخ البلاد عساها أن تساعدنا على فهم ذلك التاريخ .

لم نأت في هذا العمل الوجيز بحقائق نهائية لا جدال فيها وانما حاولنا بقدر الامكان أن نخرج تاريخ تونس من المنهج التقليدي المعهود (المتمثل في الرواية والوصف) وأن نجعل منه ، حسب التصورات الحديثة لفن التاريخ ، مجموعة تساؤلات وتآويل « افتراضية » .

حاولنا أساسا أن نقاوم « سبات العقل » وأن نثير الأفكار بل نستفزها فان أصبنا بعد الاجتهاد فلنا اجران والا فللقارئ الجدال .

مقدمة

تقع البلاد التونسية شرقي جزيرة المغرب ، ولم تتميز عنها سياسيا الا في زمن متأخر عند نهاية القرن السادس عشر او بداية القرن السابع عشر : لذلك قد يرى بعضهم أن البحث عن كيان تونسي عبر العصور أمر لا يخلو من الغرور والعجب ومع ذلك فهو عمل جدير بالعناية نظرا لما ينفرد به هذا الجزء الشرقي من بلاد المغرب الذي منه تتكون البلاد التونسية من خصائص تميزه من حيث المعطيات الطبيعية والبشرية .

وأول ما تتميز به البلاد التونسية عن غيرها موقعها وخصائصها الطبيعية البارزة. فهي تمثل أبعد اجزاء بلاد المغرب والقارة الافريقية نحو الشمال ، اذ يفصلها عن جزيرة صقلية أقل من 140 كلم ، وعن جزيرة سردينيا أقل من 200 كلم . أما خط العرض السابع والثلاثون الذي يشق شمال البلاد التونسية فيمتد الى جنوب شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والبرتغال) وجزيرة صقلية وشبه جزيرة البيلوبوناز (جنوب بلاد اليونان) وقد كانت بموقعها هذا على احدى ضفتي مضيق صقلية مطمع كبار الامبرياليين الذين سعوا الى السيطرة على حوض البحر الابيض المتوسط ، ونذكر منهم على سبيل المثال الفنيقيين والرومان والعرب والاسبان والاتراك .

وتقع البلاد التونسية على سواحل هذا البحر الذي شهد الحياة البشرية واحتضن نشاطا كثيفا منذ القديم وتمتد سواحلها على 1300 كلم

بينما لا تكاد تزيد على ذلك سواحل بلاد الجزائر المجاورة لها رغم اتساع مساحتها .
والسواحل الشمالية الجزائرية وعرة وعرضة للزوابع أما السواحل الشرقية التونسية فآمنة مضيافة في معظمها وتزيد خلجان تونس والحمامات وقابس في انفتاحها على بحر هادىء حفي بالوافدين .
وتكثر في تونس السهول والتضاريس القليلة الارتفاع : فنصف مساحة البلاد لا يزيد ارتفاعه على 200 م فوق سطح البحر ويقارب معدل الارتفاع في كامل البلاد 300 متر ، بينما يبلغ هذا المعدل 800 م في المغرب الاقصى و 900 م في الجزائر . وهذا من شأنه أن ييسر حركة التنقل ويساعد على قيام الوحدة البشرية والسياسية فجملة المرتفعات الجبلية في البلاد التونسية لا تمثل سوى كتل محدودة الامتداد ضئيلة الارتفاع (مرتفعات الظهر التونسي التي تقطعها ممرات واسعة عديدة) أو مرتفعات في أطرف البلاد كجبال شمال وادي مجردة في الشمال الغربي وجبال مطماطة في الجنوب الشرقي . ولم تستطع هذه المناطق الوعرة أن تدافع عن كيانها بصورة ناجعة وأن تصمد طويلا في وجه نهم الغزاة ونفوذ السلطة المركزية ، على غرار بروج المقاومة الشهيرة المتمثلة في جبال المغرب الاقصى (الريف ، والاطلس الاوسط والاعلى) أو الجبال الجزائرية (القبائل والاوراس) .
وكانت تونس بمثابة الارض الموعودة لكل النزعات الامبريالية في حوض البحر الابيض المتوسط . فقد عرفت سيطرة الفنيقيين والرومان والوندال والعرب والبربر سكان المغرب الاقصى والاسبان والاتراك وأخيرا الفرنسيين . وقد تلى كل عملية غزو باستثناء الاحتلال الفرنسي المتأخر في الزمن بعض الامتزاج بين الغزاة وقسم من سكان البلاد الاصليين سواء بتبني هؤلاء لحضارة الغزاة والاقتباس منها (البونيقيين والرومان والعرب مثلا) أو في عصور متأخرة باستيعاب الفاتحين وادماجهم في حضارة البلاد (كما هو الشأن بالنسبة الى بني زيري من المغرب الاوسط في القرن العاشر والحفصيين من المغرب الاقصى

في القرن الثالث عشر والاتراك في القرنين السادس عشر والسابع عشر) .
الا ان ظاهرة تقبل الفاتحين والتأثر المتبادل بينهم وبين سكان البلاد الاصليين ، وقد تكررت مرات عديدة ، مشكل لا يزال قائم الذات .
وقد نجد لها تفسيرا بديهيا في المعطيات الجغرافية الطبيعية وبالخصوص في سهولة دخول الغزاة للقطر التونسي ويسر سيطرتهم عليه . لكن ذلك لم يكن ليحصل لولا وجود قسم هام من أهل البلاد الذين كانوا يرون في الامتثال لارادة المحتلين وفي مد يد المساعدة لهم فائدة تجنى :
وينطبق هذا الامر بالذات على المجتمعات الحضرية وأعيان البلاد فقد جعلهم استثمارهم للبلاد يرغبون في استقرار النظام واستتباب الامن وان كان ذلك على يد سلطة أجنبية كما أنهم كانوا يرون أن انضمامهم الى مجموعة سياسية أو اقتصادية واسعة قد يعود عليهم بالنفع.
ومن المعلوم ان البلاد التونسية قد عرفت منذ القديم شبكة كثيفة من المدن كان من نتيجتها أن تطورت الحياة الاقتصادية والاجتماعية تطورا ميزها بعض الشيء عن بقية بلاد المغرب كما كان من نتيجتها أن تطورت طرق استغلال سكان البوادي والارياف وأن استثمرت الاسواق الخارجية بحرا كلما سمحت الظروف بذلك . ولنا أن نقول في نهاية الامر ان هذا الوضع يجعلنا ندرك كما أدركنا ذلك عن طريق المعطيات الطبيعية الجغرافية ، بل وبصورة أوضح السهولة النسبية التي لقيها الغزاة عند دخولهم الجزء الشرقي من بلاد المغرب وقد يفسر لنا هذا الوضع أيضا كيف ثبت شبه اطار تونسي واستقر ، وكيف تواصلت بعض الخصائص التونسية عبر ذلك الخضم من التقلبات والتحولات الجذرية .
واطار البلاد التونسية هو اطار افريقيا البونقية ثم الرومانية واطار افريقيا العربية أو الحفصية واطار ايالة تونس الخ.. ويحدها شمالا وشرقا البحر وجنوبا الصحراء وغربا مرتفعات جبلية تمتد من الشمال الى الجنوب غير بعيد عن الحدود الجزائرية التونسية الحالية .
ومن حيث الخصائص البشرية يمتاز أهلها ببعض اللطف في الاخلاق

وبشيء من التمدن شهد بذلك في مناسبات عدة الرحالة الاجانب منذ القرن السابع عشر. هذا حسب علمنا. وقد ألح برودال بشدة على ما تنفرد به افريقية عن بقية بلاد المغرب وأبرز ذلك في فصل هام من تأليفه : البحر الابيض المتوسط في عهد فيليب الثاني .
ومن البديهي ان هذه الخصائص لم يكن يتصف بها سوى سكان المدن والمحظوظين أما البوادي والمناطق النائية فقد كانت على خلاف ذلك : كان يعمرها اللوبيون واللوبيون البونقيون وقبائل البربر والبدو من الذين قهرتهم تقلبات الدهر وغدوا ضحية نظم الاستغلال المتعاقبة . فقد كان أسياد البلاد وحلفاؤهم من أعيان المدن والجهات المحظوظة اقتصاديا يملكون وسائل قهر قوية (حربية وإدارية ...) يسلطونها على سكان تلك المناطق . كما كانوا يحظون بنظام اقتصادي واجتماعي متقدم نسبيا . فكان ذلك الوضع كفيلا بأن يضمن لهم السيطرة على بقية البلاد واستغلالها حتى وان ادى بهم الامر الى تشريد غير الممتثلين والمتمردين ، واقصائهم نحو الهوامش القاحلة الجدباء والرمي بهم في حياة « التوحش » تلك الحياة المتأخرة تقنيا واقتصاديا واجتماعيا . وكان هذا الوضع كفيلا كذلك بأن يجعل سكان المناطق الداخلية يكنون لهم عداء متوارثا متأصلا ويترصدون أول أزمة للهجوم على المناطق الخاضعة للسلطة والمستغلة بانتظام فيفسدون سير الامور فيها وقد يعينهم على الامر ضحايا ذلك الاستغلال . لذلك كان سكان الحواضر والذين يحيون حياة مستقرة وبعبارة أدق الاعيان منهم والمنتفعون من استثمار البلاد يتقبلون دائما بارتياح قدوم سيد جديد قادر على فرض النظام وارجاع الامور الى نصابها وكسر شوكة المتمردين من المحرومين .
وتمثل هذه الحركية التي بسطنا خطوطها الكبرى فرضية عملنا وسننطلق منها لتفسير تاريخ البلاد التونسية بل وتاريخ بلاد المغرب وسنتوقف في الصفحات الموالية في أكثر من مناسبة لامتحان هذه الفرضية واختبار صحتها .
ولنذكر بأنه لئن كانت المعلومات المتعلقة بتاريخ الغزاة المنتصرين

والاعيان المحظوظين متوفرة لدينا نسبيا فاننا أقل اطلاعا على أحوال المحرومين وضحايا نظم الهيمنة والاستغلال على اختلاف أنواعهم . وهكذا تفلت عن مجال اطلاعنا جوانب هامة من التاريخ وذلك مما يؤسف له .

ولنبدأ بعد أن أبدينا هذا الاحتراز جولتنا عبر العصور .

عصور ما قبل التاريخ

تثير دراسة عصور ما قبل التاريخ المغربية مشاكل عديدة منها : معرفة مدى قدم الحياة البشرية في المغرب وما هو أصلها وهل تطورت الثقافة تطورا ذاتيا أم اقتصرت على تقبل التأثيرات الخارجية ؟ وهل كانت مواكبة لما كان يحدث في أروبا أم متأخرة عنه ؟ وسنقتصر الآن على رسم بعض الخطوط الكبرى لا أكثر.

لقد لوحظت آثار الحياة البشرية ببلاد المغرب وفي الجزء الشرقي منه منذ **العصر الجيولوجي الرابع القديم** (1) أي منذ نصف مليون سنة أو أكثر : فقد عثر على قطع من الحجارة المستديرة المنحوتة الراجعة لذلك العهد في مقاطعة قسنطينة (عين الحنش) وكذلك في الجنوب التونسي (عين برمبة) ثم عمت **حضارة الحجارة ذات الوجهين** (2) بلاد المغرب منذ مائتين أو ثلاث مائة الف سنة في **العهد الاشولي** (3) (بالرديف في الجنوب الغربي التونسي وسيدي الزين قرب الكاف) . وفي **العهد الموستيري** (4) في **عصر رجل «النياندرتال»** (5) الاروبي ظهرت بالمغرب حضارة الشظايا الحجرية ويبدو أن هذا الظهور قد حدث في بلاد المغرب متأخرا بعض الشيء عن أروبا . وتطورت هذه الحضارة شيئا فشيئا تاركة مجموعة من الآلات : من شظايا ومكاشط وأسنة من الحجارة الخ... وكانت **الحضارة العتيرية** الشهيرة بآلاتها المذنبة التي عثر على

---

(1) Quaternaire ancien
(2) Civilisation des bifaces
(3) Acheuléen
(4) Moustérien
(5) Néanderthal

عدد كبير منها في منطقة بئر العتير في الجنوب الشرقي من قسنطينة هي الحضارة المميزة لبلاد المغرب منذ 30.000 أو 20.000 سنة .
وفي أواخر العهد **الجليدي** (1) (منذ 10.000 سنة أو 9.000 ق.م) كانت حضارة **العصر القفصي** تمتد على قسم كبير من بلاد الغرب . وتقع أشهر البقاع التي أخذ منها اسم هذه الحضارة في منطقة قفصة حيث اكتشفت آثار « الصيادين الملتقطين » في أكمات الحلزون الشهيرة (2) (المتمثلة في أكداس من صدف الحلزون والرماد) . ويلاحظ من خلال هذه الآثار تطور هام في فن نحت الحجارة وصناعة الآلات الحجرية من أزاميل أو مناحت حادة وشفرات مختلفة الاشكال . ويبدو أن هذا « التقـدم التقنـي » قد تحقـق بتأثير الحضارات الشرقية . أما العنصر البشري فقد كان ينتمي في الغالب الى الجنس المتوسطي مشوبا ببعض الملامح الزنجية .
وظهر **العصر الحجري الاخير** (3) (عصر المنتجين المربين) ببلاد المغرب منذ أربعة أو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ومن المؤكد ان ذلك حدث بتأثير حضارة وادي النيل وقد تسربت عبر الصحراء المخضرة آنذاك . ووقع الانتقال الى عصر حضارة الحجارة المصقولة (بلطات ونصال سهام الخ...) والى عصر الخزفيات والرسوم الشهيرة على الصخور المنتشرة من دواخل الصحراء الى ناحية جبنيانة . الا ان صناعة الحجارة المنحوتة المحلية لم تترك جانبا بل واصلت تطورها الذاتي وأصبحت أكثر تنوعا وجودة في صنع الآلات الحجرية الدقيقة .
وكذلك الامر في الميدان الاقتصادي : فلئن اقتبس سكان المغرب تقنيات الفلاحة وتربية الحيوانات عن الشرق الاكثر تقدما ، فانهم لم ينسوا العادات « القفصية » ولا أنماط العيش القائمة على القنص وجني الثمار .

Dernière glaciation (1)
Escargotières (2)
Néolithique (3)

ومنذ ثلاثة آلاف أو الفي سنة قبل الميلاد تسربت الى البلاد التونسية خصائص عديدة من حضارة **العهد البرنزي** (1). وتمثلت تلك الخصائص في **الثقافة الميغاليتية** (2) المتميزة باستعمال الحجارة الضخمة او الغيران الصخرية (كمقابر **الدولمان** (3) و « الحوانيت» (4) أو القبور المحفورة في الصخر) وقد بقيت منها آثار عديدة خاصة في منطقة مكثر. كما عثر على الخزفيات الشرقية في عدة مواقع . ولم تعد البلاد التونسية تتلقى ما يأتيها من الشرق من رجال وتأثيرات عن طريق الصحراء وقد أجدبت انما عن طريق البحر والمحطات الواقعة على سواحل الجزر : لقد كان الفنيقيون في ذلك العهد على الابواب .

والاعتقاد السائد حتى عهد غير بعيد هو ان الفضل في كل ما عرفته افريقيا الشمالية في العصور القديمة من تقدم اقتصادي وتقني وثقافي انما يعود الى الفنيقيين وعللوا ذلك بما عرفه الفنيقيون من تقدم في هذه الميادين : فقبل قدومهم كان الخلاء والقفر وكان التوحش وبقدومهم سادت الحضارة. وما هذا الا تصور بسيط للامور وجبت مراجعته ، فقد ظهرت مؤخرا مواقف أكثر تثبتا واعتدالا فقد لوحظ مثلا أن من أهم المناطق عمرانا في العهد الروماني منطقة مكثر التي تميزت في عهد ما قبل التاريخ بكثافة مواطن التجمعات السكنية وهو ما يجعلنا نفترض أن أساس التقدم العمراني الهام الذي عرفته افريقيا في العصور القديمة ذاتي في جزء منه وأن الخصائص المعمارية الافريقية قد ترجعنا الى عادات محلية متناهية في القدم أدخلت عليها اضافات خارجية .

ولم نذكر هذا استصغارا لدور الفنيقيين فقد جعلوا البلاد التونسية وبقية شمال افريقيا تدخلان ميدان التاريخ .

---

(1) Age du Bronze
(2) Culture mégolithique
(3) Dolmens
(4) «Haouanet»

العصور القديمة

تمتد العصور القديمة بالنسبة لكل بلدان الشمال الافريقي من ظهور الفنيقيين حوالي أحد عشر قرنا قبل الميلاد الى قدوم العرب في النصف الثاني من القرن السابع بعد الميلاد . وبصورة جملية اقتسمت هذه الفترة الطويلة حضارتان اثنتان كان لهما عميق الاثر في تغيير ملامح القسم الشرقي من بلاد المغرب : وهما الحضارة البونيقية ثم الحضارة الرومانية ولكن هل كان نتيجة ذلك أن انقرض السكان الأصليون انقراضا كاملا بالقضاء عليهم أو باستيعابهم التام ضمن الحضارات المتغلبة ؟ نحن نستبعد هذا الاحتمال وما ينبغي أن تبهرنا أسماء شهيرة مثل قرطاج وروما فتحجب عن أنظارنا مجموع السكان الأصليين وما لهم من دور ربما كان حاسما في تحديد مصير الحضارتين اللامعتين البونيقية ثم الرومانية في افريقيا بما في ذلك من خير وشر .

1) العهد البونيقي

لقد سيطر **الفنيقيون** أو **البونيقيون** على البلاد التونسية طيلة ألف سنة من أواخر الالف الثانية حتى سنة 146 قبل الميلاد أي حتى تاريخ تهديم قرطاج . وقد استطاعوا بفضل رسوخ أقدامهم ومناعة مراكزهم على السواحل ان يحتكروا كل المبادلات مع خارج البلاد وأن ينفردوا

بأحدث التقنيات وأكثر النظم احكاما بالنسبة الى ذلك العصر . أما سكان البلاد الاصليون فقد كانوا اما رعايا خاضعين لنفوذ قرطاج (**اللوبيون** (1) في قسم كبير من القطر التونسي) أو مستقلين عنها مع التأثير العميق الذي كان **للبونيقيين** فيهم (**النوميديون المسيليون** (2) غرب البلاد التونسية الحالية وفي مقاطعة قسنطينة). ولم تكن المنشآت البونيقية الاولى تمثل سوى محطات على طريق المعادن ، من شبه الجزيرة اللايبيرية نحو مراكز الحضارات الشرقية الكبرى المتعطشة الى الفضة والقصدير وغيرها من المعادن في نهاية العصر البرنزي .

وكانت هذه التجارة بيد الفنيقيين وفي مقدمتهم **الصوريون** (3). وشيئا فشيئا جعلوا من قرطاج أهم محطة في طريقهم من اسبانيا (قادش) الى فنيقيا .

ومن المتعارف أن التاريخ الرسمي لتأسيس « المدينة الجديدة » (**قرط حدث** أو قرطاج) يعود الى سنة 814 قبل الميلاد : أي أربعين سنة قبل بداية الالعاب الاولمبية وستين سنة قبل ظهور اليونانيين في الغرب وقبل التاريخ الرسمي لتأسيس روما. ويسند تأسيس قرطاج الى جماعة من الصوريين طردوا من وطنهم وكانت تقودهم **عليشة** (أو **ديدون** (4) كما يسميها الرومان) تلك الشخصية الاسطورية وكبير الكهنة الفنيقيين في جزيرة قبرص الى جانب مجموعة من السبايا أسرن على سواحل تلك الجزيرة . ولم يلق هؤلاء الوافدون على افريقيا صعوبة في أن يقطعهم القواد المحليون المجاورون أرضا يقيمون عليها مدينتهم . وقد يكون الموقع الاول لهذه المدينة غير بعيد عن هضبة بيرصة من ناحية الجنوب حول الموانى البونيقية وعلى مقربة من معبد **تانيت** ويمثل هذا الموقع ميناء منيعا في شبه جزيرة لا يربطها باليابسة سوى جزء ضيق من الارض

Libyques (1)
Numides Massyles (2)
Les Tyriens (3)
Elyssa ou Didon (4)

لا يزيد عرضه على بعض الكيلومترات ويمتد بين بحيرة تونس وسبخة اريانة التي كانت متصلة بالبحر آنذاك .
ويخيم على العصر البونيقي الاول (القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد) ظلام دامس . ويمكن أن تكون الخزفيات اليونانية الكثيرة التي عثر عليها في قبور القرن السابع دليلا على اثراء مدينة قرطاج عن طريق التجارة . ومن المرجح أن تحالف البونقيين مع **الأترسك** (1) يعود الى ذلك العهد وكان ذلك التحالف موجها ضد اليونانيين الغربيين المستقرين جنوب ايطاليا وشرق جزيرة صقلية ثم على سواحل بروفنسا . (فقد أسست مسيلية قبيل سنة 600 قبل الميلاد) .
وفي القرن السادس ق. م. عظم دور قرطاج نظرا لما حل بالعاصمة الام «**صور**» من ضعف ثم لخضوعها لملوك **بابل** (سنة 573 ق. م.) وبعد حروب ومعارك متواصلة تمكنت قرطاج من السيطرة على اليونانيين في جزيرة **صقلية** ومن تدعيم مراكزها في جزيرة **سردينيا** بمدينة **نرة** (2) . كما تمكنت من طرد **الفوسيين** (3) من جزيرة **كرسيكا** . واستطاعت من ناحية اخرى أن تطرد الامير الاسبرطي **دارا** (4) من السواحل الليبية التي كان قد استقر فيها سنة 514 ق. م. ورغم كارثة **هيمار** (5) في صقلية سنة 480 ق. م. فقد تواصل تقدم قرطاج وازدهارها في القرن الخامس فوسعت تجارتها وعززت قواعد قواتها في الجزر الواقعة غرب البحر الابيض المتوسط وفي اسبانيا ، وارسلت رحلة **حنون** (6) الشهيرة لاكتشاف السواحل الافريقية ورحلة **هيميلكون** (7) نحو الجزر البريطانية لغرض معين وهو التوسيع في ميدان نشاطها التجاري .

Etrusques (1)
Norra (2)
Phocéens (3)
Doriens (4)
Himère (5)
Hannon (6)
Himilcon (7)

وفي القرن الخامس الميلادي طرأ تجديد هام . فقد احتلت قرطاج في ذلك العهد المناطق الداخلية الافريقية وحصل الاعيان من القرطاجيين على ضيعات واسعة على حساب **اللوبيين** الذين دفع بهم داخل البلاد أو أضحوا مزارعين يقتسمون الصابة مع صاحب الارض بل وأحيانا مجرد عمال بالمزارع . وتمثل هذه الظاهرة نقطة تحول في تاريخ قرطاج . ويمكن أن نقول إن القرطاجنيين والصوريين قد تحولوا الى أفارقة لكنهم أفارقة محظوظون .

ولم تعتمد قرطاج على جيوش من ابنائها لحماية امبراطوريتها الواسعة وقواعدها التجارية بل عمدت الى جيوش من المرتزقة جلبتهم من افريقيا نفسها (الرجالة **اللوبيون** والفرسان **النوميديون**) ومن **اسبانيا** ومن جزر **الباليار وسردينيا وصقلية** الخ... وفي هذا الحل وجوه سلبية لا تخفى ، من ذلك أنه كان يكلف قرطاج أموالا طائلة لكنه مكنها من ان تحافظ طيلة ثلاثة قرون على امبراطوريتها ومختلف امتيازاتها رغم قلة عدد ابنائها ، بينما لم تستطع **أثينا** وقد كانت لها نفس الطاقة البشرية أن تحافظ على امبراطوريتها بالاقتصار على جنود من أبنائها أكثر من سبعين سنة .

ويرجع الفضل في قسم هام من هذه الاعمال وهذا النجاح الى جهود عائلة **الماغونيين** (1) وهم أول من عرف التاريخ اسمهم من القرطاجنيين في القرنين السادس والخامس ق. م. لكن نظام قرطاج الاقتصادي والاجتماعي المتميز بتفوق اللارستقراطية القائمة على المال وبغلبتها وكذلك نظامها السياسي كانا لا يقبلان بروز شخصيات قوية ويتصديان لكل تطور نحو الحكم الفردي . لذلك لا نستطيع أن نذكر من الاعلام البارزين في تاريخ قرطاج الطويل الثري سوى القليل .

وكان تاريخ قرطاج فعلا ثريا بالاحداث ونذكر منها الحروب والمعارك الشديدة التي تواصلت ضد اليونانيين الغربيين وفي مقدمتهم الذين استقروا في سرقسطة. ورغم التقلب بين النصر والهزيمة تواصل التوازن

(1) Magonides

بين القوتين واستطاعت قرطاج أن تحافظ على المواقع الضرورية لتجارتها غرب صقلية وجنوب سردينيا وفي جزر الباليار . وقد دام ذلك الوضع على الاقل الى أن ظهر منافس ومزاحم جديد : وهو رومـــا .

وحوالي سنة 264 ق. م. اصطدم الرومان أثناء زحفهم نحو الجنوب بالبونيقيين الذين استقروا منذ زمن قريب **بمسينة** وبذلك كانت بداية الحروب البونيقية .

ودامت الحرب الاولى من 264 الى 241 ق. م. ، وانتهت بهزيمة قرطاج وفقدانها لمواقعها بجزيرة صقلية وبدفعها غرامة حربية ثقيلة . وانجر عن هذه الهزيمة انهيار اقتصادها ونضوب مدخراتها المالية فعجزت عن تسديد ما كان في ذمتها من مرتبات متأخرة للجنود المرتزقة الذين سرحوا وعادوا من صقلية الى افريقيا . وهناك انضاف غضبهم الى غضب السكان **اللوبيين** وقد أثقلت قرطاج كاهلهم بالضرائب أثناء الحرب وبعدها حتى عيل صبرهم وقاموا مع الكادحين من الجند بثورة مريعة كادت تؤدي بقرطاج الى الهاوية (بين سنة 241 وسنة 237 ق. م).

ثم ظهر **أملكار برقة** (1) الرجل الذي استطاع ان ينقذ الموقف والذي أبدى حنكة في الحرب وحكمة في السياسة أثناء السنوات المظلمة الاخيرة من الصراع ضد روما وأيام ثورة المرتزقة . وهو الذي أنشأ امبراطورية جديدة قوية في اسبانيا تقوم على استثمار ثرواتها المعدنية وعلى ارساء حكم فردي قوامه الجيش متأثرا في ذلك بدون شك بنظام الممالك **الهلينستية**. (2) وواصل هذه الاعمال وطورها صهره **صدر بعل** (3) ثم ابنه **حنبعل** (4) وكان هذا الاخير قد أقسم بين يدي أبيه وهو صبي أن يضمر لروما حقدا أبديا لا يزول . وآل الى حنبعل أمر استئناف الحرب ضد روما (بين 219 و 218 ق. م.) .

---

(1) Amilcar Barca
(2) Royaumes hellénistiques
(3) Hasdrubal
(4) Hannibal

وكانت بذلك بداية الحرب البونيقية الثانية ، أما احداثها فمعروفة لدينا : فقد قام حنبعل بملاحمته الشهيرة في ايطاليا حيث أفنى على التوالي كل الجيوش الرومانية التي جابهته (218 ـ 216 ق. م.) .

ثم بان عجزه عن القضاء على الدولة الرومانية لا بسبب انغماس جيوشه في ملذات **كابو** (1) كما يقول المثل بل يرجع ذلك الى رفض حلفاء روما من الايطاليين الوقوف الى جانب حنبعل ضدها . وختاما تمكن «**شبيون الافريقي**» (2) من الحلول بالسواحل الافريقية ونجح في جلب القواد **النوميديين** الى صفه وأخيرا انهزم القرطاجيون في واقعة **زامة** سنة 202 ق. م. وأبرمت اثرها معاهدة الصلح . وبمقتضى هذه المعاهدة التزمت قرطاج بدفع غرامة حربية ثقيلة وبالتخلي عن فيلتها وأسطولها كما تعهدت بأن لا تعلن حربا في المستقبل بدون موافقة روما وأن تتخلى للقائد **النوميدي ماسينيسا** (3) الذي ساند **شبيون الافريقي** عن كل الاراضي التي كانت في حوزته أو في حوزة آبائه واجداده. وكانت بذلك نهاية قرطاج من حيث هي قوة متوسطية فقد أضحت نتيجة شروط المعاهدة القاسية ضحية مقيدة قدمت لنهم **مسينيسا** الضاري .

واستطاع هذا القائد بفضل تحالفه مع روما أن يجمع حوله كل **النوميديين** وأن يؤسس مملكة تغطي تقريبا شمال بلاد الجزائر الحالية ، وفرض الأمن ونشره في كل المقاطعات اثناء مدة توليه الحكم المتناهية في الطول (من سنة 202 الى سنة 148 ق. م.) وشجع كل التشجيع نشاط الزراعة والتجارة وعمل على تطوير المجتمع واخرجه من حياة القبائل المتنقلة الى حياة الفلاحين المستقرين بل الى حياة الحضارة والعمران . فقد بلغ عدد سكان مدينة **سيرتا** (4) (قسنطينة) عاصمته ما يفوق المائة الف نسمة على ما يروى . وارتقي **ماسينيسا** من

---

(1) «Délices de Capoue»
(2) Scipion l'Africain
(3) Massinissa
(4) Cirta

مجرد رئيس قبيلة الى مقام الملك على غرار ما قام به آل برقة (**اميلكار وحنبعل** باسبانيا) أو خلفاء الاسكندر بالشرق . وستسلط هذه القوة بطبيعة الحال على قرطاج .

فقد اخـذ **مسينيسا** ينتش المقاطعات القرطاجنية القطعة بعد القطعة على مرأى ومسمع من الرومانيين وكانوا محايدين في الظاهر وفي حقيقة الامر مؤيدين لصنيعه (في السنوات 193 و 182 و 172 و 162 وأخيرا سنة 153 ـ 152 ق. م.) . وفي الحملة الاخيرة لم يكن هم الملك **النوميدي** سوى الاستيلاء على مزارع القمح الخصبة في سهول وادي مجردة الوسطى .

فردت قرطاج الفعل سنة 150 باعلان الحرب لكنها خسرتها ، الا ان ذلك لم يمنع روما من أن تعتبر معاهدة الصلح مع قرطاج قد نقضت فدخلت بدورها الحرب ضدها .

ولم يكن يهم روما التغلب على عدو لم يبق أدنى شك في انهياره بقدر ما كان يهمها منع **مسينيسا** من دخول قرطاج ومن جعلها مركزا لقوة جديدة قد لا تحمد عقباها . لذلك قررت روما تهديم قرطاج قرار لا رجعة فيه . وكم توسلت المدينة البونيقية القديمة بل انها تنازلت عن معداتها واسلحتها للرومان لكنهم لم يلينوا ولم يستجيبوا لتوسلاتها ، فقررت قرطاج بعد ان خابت مساعيها ان تقاوم في انتفاضة هي اليأس فصمدت ثلاث سنوات واضطرت جيوش **شبيون** اثناء الحملة الاخيرة الى أن تصارع الاهالي منزلا منزلا تقريبا لتسيطر نهائيا على المدينة (ربيع سنة 146 ق. م.) واصبح الذين أفلتوا من القتل عبيدا واحرقت المدينة وخربت بناءاتها وفرشت ارضها ملحا واعتبرت ملعونة .

وقد ظلت مأساة سقوط قرطاج منذ القديم مصدر كثير من التأمل والتفكير وهي تمثل الى حد الآن مشكلا قائما : فهل كان سقوط قرطاج راجعا الى مجرد تفوق روما على قرطاج في الميدان الحربي والى مجرد كونها متعطشة الى التوسع ، أم حالف النصر روما لانها كانت أكثر ملائمة من غيرها لمقتضيات ذلك العصر؟ إن صحّ هذا القول وجب

أن نحكم على النظام البونيقي في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد بأنه نظام « متخلف » لم يبق مواكبا لتطورات عصره ومقتضياته وفي الواقع صار هذا شأن حكم الارستقراطية التجارية القرطاجنية ذلك الحكم الاناني القائم على سلطة أصحاب الثروة والمنحصر في نطاق مدينة محدودة فلم يبق قادرا على مواجهة قوة من نمط جديد مثل الامبريالية الرومانية .

فما هي خصائص هذه الحضارة التي اغتيلت اغتيالا وماذا بقي منها في الاقاليم الافريقية ؟ يجد المرء عادات شرقية كثيرة (طرق اللباس وحظر بعض المأكولات) كما ظلت اللغة البونيقية مستعملة في بعض المناطق الريفية حتى أيام **القديس أوغستان**(1) أي بعد خمسة قرون من تهديم قرطاج . أضف الى ذلك معتقدات وطقوسا وعادات دينية انغرست في البلاد لمدة طويلة بعضها بقي حتى اليوم (التمائم الواقية مثل اليد المفتوحة « الخمسة » أو السمكة أو الهلال واقامة الصلوات والابتهالات للاستسقاء الخ...) لكننا نعتقد ان أثبت ميزة للحضارة البونقية تتمثل في اقامة شبكة كثيفة من المدن أو القرى شرقي بلاد المغرب (وفي جهات أخرى على السواحل) يصحبها تنظيم اقتصادي واجتماعي متطور متشابك . ألم تباه قرطاج بأنها سيدة « ثلاث مائة مدينة » مجتمعة على السواحل وفي منطقة التل ؟ وقد تكون أغلب هذه المدن مجرد مداشر صغيرة لكن يكفيها فضلا أنها قد وجدت .

ولنذكر على الاقل تلك التي خلد ذكرها حتى عصرنا الحاضر لكونها لا تزال آهلة بالسكان ، نجد على السواحل بطبيعة الحال قرطاج **وحضرموت**(2) (سوسة) **وتبسوس**(3) (رأس الديماس) **ولبتيس**(4) لمطة وكركينيتس أو**كركينا** (5) (قرقنة) **ونيابوليس** (6) (نابل) وأسبيس

(1) Saint Augustin
(2) Hadrumète
(3) Thapsos
(4) Leptis
(5) Cercinitis ou Cercina
(6) Néapolis

أوكلوبيا (1) (قليبية) وهيبوس أكرا (2) (بنزرت) وتبراقا (3) (طبرقة) . كما نجد بالمناطق الداخلية الاسماء التالية : باجا (4) (باجة) وسكافينيريا (5) (الكاف) وتوكاي أو توقا (6) (دقة) ومكتر (7) (مكثر) وكبسة (8) (قفصة) وتالة (9) (تالة) الخ...

ولنذكر بان هذا التقدم العمراني الرائع الذي حصل قبل العهد الروماني قد كان له عميق الاثر في القسم الشرقي من بلاد المغرب : ففي ميدان الفلاحة انتشرت الزراعات واستقرت وشهدت الضيعات والمزارع في أخصب المناطق اتساعا كبيرا . وتشهد على ذلك الحصون والقلاع المنتشرة في تلك الاراضي (مثل برج حنبعل بالساحل) كما نجم عن ذلك الوضع ازدهار التجارة وخاصة التجارة البحرية ونشاط الصنائع التي كانت تخصص قسما من طاقتها للتصدير . وانقسم المجتمع بدوره الى مجموعات متفاوتة في الثراء شديدة التباين وقد كان ضحايا النظام **البونيقي** وبالتالي اعداؤه كثيرين : لنذكر بمصير القبائل البربرية التي دفع بها نحو المناطق الهامشية وقد أثقل كاهلها بالضرائب المجحفة وكذلك مصير الكادحين من عمال الزراعة ومعظمهم من **اللوبيين** وقد كانوا مستغلين استغلالا قاسيا . فليس من الغريب أن تجد قرطاج نفسها منعزلة وقت الشدة . ومع ذلك لا ينبغي أن يغيب عنا أن **البونيقيين** قد بقوا في البلاد التونسية ما يقارب الالف سنة. وكان من ابرز نتائج ذلك العهد نشأة فوارق اجتماعية وجهوية وحتـــى ثقافية قوية بين قطاع متفتح متقدم في المدن وما حولها وآخر عتيق منغلق على نفسه يشمل تقريبا مجموعة السكان الذين اطردوا من مواطنهم وغلبوا على أمرهم . واتصفت البلاد التونسية منذ ذلك العهد بانعدام التوازن الدائم بين القطاعات الجغرافية والاجتماعية . واصبح المجتمع الحضري باطاراته من الاعيان عرضة للضعف والانكماش أثناء الازمات وعند تقلبات الدهر لكنه لن ينقرض بل سيبقى يترصد ظروفا

---

(1) Aspis ou Clupea
(2) Hippos Accra
(3) Thabraca
(4) Vaga
(5) Sicca Veneria
(6) Tocai ou Thugga
(7) Mactar
(8) Capsa
(9) Thala

جديدة ملائمة حتى يسترجع ما كان له من ازدهار ويدعم من جديد سيطرته على سائر البلاد وعلى أهلها . وذلك ما حدث مثلا في عهد « الامان الروماني » .

2) العهد الروماني

في سنة 146 ق. م. أصبحت ممالك قرطاج ملكا للشعب الروماني وهو ما يوافق تقريبا الثلث الواقع في الشمال الشرقي من البلاد التونسية الحالية . ومنحت المدن البونيقية التي غادرت المعسكر القرطاجي وانضمت في الوقت المناسب الى الصفوف الرومانية وضعية المدن الحرة (حضرموت وأتيكا وتبسوس وبعض المدن الاخرى) كما احتفظت بما كان لها من مقاطعات وبقيت المؤسسات البونيقية السابقة (الحكام المنتخبون قضاة ومجالس الاعيان) تواصل عملها سواء في المدن المحظوظة او في المدن المولى عليها. فقد كان الرومان لا يهتمون كثيرا بالاشراف على تسيير الشؤون الداخلية لسكان افريقيا بل كان يكفيهم الحفاظ على الامن الذي كان في عهدة الوالي المستقر بأوتيكا وجمع الضرائب والاشراف على استثمار الضيعات الكبرى .

لم تقم روما الا بالقليل من المبادرات الرسمية في مستعمراتها الافريقية طوال قرن كامل . وأهم مبادرة من هذا النوع هي محاولة **القراك** Les Gracques (1) الفاشلة لتعمير منطقة قرطاج القديمة واستثمارها حوالي سنة 123 ق.م. غير ان عددا كبيرا من الرومانيين والايطاليين قد تدفقوا على المراكز الافريقية النشيطة (أوتيكا وحضرموت وبعض المدن الداخلية) بوصفهم موظفين في الدولة او وكلاء على املاك اعيان روما العقارية او ممثلين لنوع من الاستعمار الخاص « الوحشي » مما جعل عدد الوافدين من ايطاليا من تجار وصناع وحتى من مستثمري الارض يرتفع في المناطق الافريقية الاكثر ثراء .

---

1) اخوان من حكام روما وخطبائها قدما مشروع اصلاح زراعي حاولا به وضع حد لنهم الارستقراطية الرومانية التي سيطرت على معظم الاراضي المنتزعة من الاعداء .

وفي اواسط القرن الاول قبل الميلاد أطلق **يوليوس قيصر** العنان لاستعمار المقاطعة الافريقية رسميا واستثمار اعماقها . فجعل الاراضي الرومانية تمتدالى قلب مقاطعة قسنطينة واعاد تنظيم الادارة فيها وشرع في انشاء مستعمرات رومانية ، أهمها مستعمرة قرطاج التي قرر احياءها ولكنها لم تشيد الا بعد موته . وواصل **اغسطس** Auguste (من 30 الى 14 ق.م.) ما بدأه قيصر من أعمال فأنشأ مستعمرات رومانية عديدة منها مستعمرة قرطاج(29 ـ 27 ق.م.) ومنح ثلاثين مدينة قانون « المدن الحرة » ونصب عددا كبيرا من المعمرين الرومانيين في المؤسسات الجديدة . لكن هذه الاعمال حصلت على حساب قبائل عديدة دفع بها نحو المناطق الفقيرة الجدباء وعلى حساب مجموعات بشرية أخرى اختل توازنها المعاشي القديم . وكانت ردود الفعل عنيفة : فهذا **تكفارنياس** Tacfarinas مثلا وهو من قدماء المحاربين بالجيش الروماني ـ يدفع بني قومه والموالين له من الافارقة (**المسولماس** Musulames **والجيتول** Getules) الى الثورة حتى يسترجعوا من الرومان أرضهم التي كانوا يستمدون منها قوتهم (بين سنة 17 وسنة 24 م) . وتمثل رد الفعل الروماني في اتخاذ تدابير حربية جديدة : فقد جعل أغسطس في **حيدرة** Ammaedara (في القسم الغربي من البلاد التونسية حاليا) معسكر الفيلق الثالث الروماني IIIè Légion Augusta كما فتحت طرقات استراتيجية في منطقة السباسب العليا بين حيدرة **وقبصة** Capsa **وتكاب** Tacape (قابس) وكما شنت حملات حربية عنيفة ضد القبائل المتمردة أو التي تهدد بالتمرد .
فكان من نتيجة ذلك أن انقسمت تلك القبائل وتشتت أمرها وامتد الاحتلال الروماني حتى انتهى الى سواحل المحيط الاطلسي غربا (في سنة 40 م مثلا الحقت المملكة المريطانية بروما وصارت تابعة لها) وتخوم الصحراء جنوبا . وأقيمت حول الممتلكات الرومانية سلسلة كثيفة من الحصون المنيعة احاطت بها ومكنت من انتشار الامن في ربوعها .

وفي ظل السلم الرومانية Pax romana ازدهرت حركة الاستيطان والاستعمار فتحول قسم كبير من أراضي البلاد التونسية الحالية « افريكا القديمة » Africa vetus الى مزارع شاسعة يملكها الامبراطور او عظماء روما (على حد قول بلين Pline كان ستة ملاكين كبار (latifundiaires) يقتسمون فيما بينهم كامل الاراضي الافريقية وذلك قبل عملية المصادرة الواسعة التي قام بها نيرون (Néron) . وازدادت في القرن الاول اهمية القموح الافريقية وذلك لاطعام العامة من الشعب الروماني . ومنحت المراكز الحضرية التي بلغت حدا كافيا من النمو والتي بدأت تؤثر فيها الحضارة الرومانية قانون المستعمرة الرومانية أو قانون المدينة اللاتنية مثل : **حضرموت** Hadrumete **ولبسيس ماقنا** Lepcis Magna **وقبصة** Capsa **واوتيكا** Utique **وبولا ريجيا** Bulla Regia **وتبوربو ماجوس** Thuburbo Majus الخ...

وتسارعت حركة انتشار الحضارة الرومانية منذ بداية القرن الثاني لكنها لم تعد نتيجة هجرة الايطاليين التي اخذت تنضب شيئا فشيئا بل أصبحت من عمل الافارقة أنفسهم . ومن البديهي ان هذه الحركة لم تشمل كل سكان البلاد انما شملت النخب الحضارية وخاصة الاثرياء منهم وقد أثرت فيهم الثقافة اللاتنية قبل ذلك تأثيرا متفاوتا . كما شملت قدماء المحاربين في الجيش الروماني ، وظل الارتقاء الى مرتبة « المواطن الروماني » زمنا طويلا يحصل بصورة فردية او في نطاق أسرة كاملة الا أنه قد يتم في بعض الاحيان بسرعة فائقة . **فالا نتستيون** Antistii مثلا اسرة من بلدة **اتيبيليس** Thibilis الصغيرة الواقعة شرقي الجزائر أسند لرئيسها **أدفنتوس** Adventus - وهو رجل حرب - قيادة الجيوش المرابطة على حدود ايطاليا الشمالية في جبال الالب بين سنة 170 وسنة 174 . وبعد هذا التاريخ عين واليا في بلاد الجرمان السفلي ثم في مقاطعة بريطانيا الفرنسية . وتزوج أحد ابنائه او أحد اخوته ابنة الامبراطور **مارك أورال** Marc Aurèle نفسها

سنة 178 وارتقى آل **انتيسي** في حوالي سنة 180 الى مصاف النخبة الضيقة المتركبة من كبريات العائلات الشريفة في روما : كل ذلك ولم ينقطع اتصالهم المتين بمسقط رأسهم النائي الحقير.
ولنا مثال آخر في اسرة **السبتيميين** Septimii التي منها الامبراطور سبتيم سيفار Septime Sévère (192 - 211) فقد كانوا من الاعيان الاثرياء في **لبسيس** ماقنا Lepcis Magna (شرق طرابلس) وكانوا يشغلون فيها المناصب القيادية لما حصل كبير تلك الاسرة على « الجنسية » الرومانية في اواسط القرن الاول بعد الميلاد . فانقسم **السبتميون** منذ ذلك العهد الى فرعين اثنين : فرع ايطالي أمد روما بعدة قناصل اعضاء في مجلس الشيوخ وفرع افريقي كان منه الامبراطور الذي دخل مجلس الشيوخ شابا وذلك بفضل مساندة ابناء عمه في روما وقام بعمله في ذلك المنصب على اكمل وجه الى ان ولي امبراطورا على عرش روما سنة 192 .
وينبغي أن نذكر ان الافارقة كانوا يشكلون آنذاك في روما حزبا قويا بدأ يعوض الحزب الاسباني الذي كان له التفوق حتى ذلك العهد . كما قدرت نسبة الارستقراطيين الرومانيين المنحدرين من أصل افريقي في ذلك العهد بـ 15 ٪ من جملة تلك المجموعة . وفي عهد **السيفريين** Sévres (192 - 235) وحتى بعد ذلك العهد بلغت افريقيا درجة عالية من الازدهار والقوة واضحت آنذاك على حد قول كورتوا Courtois « شبيهة بالمزرعة الكبيرة المستثمرة استثمارا تاما محكما» . فقد عمت المنتوجات من قموح وزيوت وخمور كل البلاد بل انها وفرت فائضا هاما للتصدير وذلك بفضل انتشار الامن واستخدام تقنيات متطورة (بصورة خاصة في اشغال الري) وباشراف عدد من كبار الملاكين ومتوسطيهم ممن يهمهم الامر اشرافا مباشرا أضف الى ذلك ما عرفته بعض الصنائع من ازدهار مكنها من غزو اسواق خارجية واسعة مثل صناعة الخزف التي كانت توفر كميات هائلة من الجرار الصالحة لنقل الزيوت والخمور كما كانت توفر مختلف الاواني

المنزلية والمصابيح . ومن خلال كل هذه المظاهر ندرك حقيقة الازدهار الذي لم يزل يشهد به جلال معالم الحضارة الرومانية الافريقية وانتشارها في كامل البلاد التونسية .
وأفادت روما بالدرجة الأولى من هذا الازدهار الذي وفر لها قسما من القموح اللازمة لاطعام عامة الشعب كما أفاد منه عظماء تلك المدينة سواء أكانوا من أصل أفريقي أم لا والذين كانوا يملكون في افريقية مزارع واملاكا شاسعة . كما أفاد منه المشرفون على تلك الممتلكات والوسطاء من جميع الاصناف ، وأخيرا أفـاد من ذلك الازدهار خاصة أبناء المعمرين الرومانيين والاعيان المحليون الذين آل بهم الامر الى اعتناق الحضارة الرومانية . ويمثل كل هؤلاء ما يقارب العشرة آلاف عائلة من البورجوازية « البلدية » وكانت بمثابة العمود الفقري لكامل النظام الروماني . وتمكنت هذه البورجوازية في ظل « السلم الرومانية » من أن تستثمر الارياف لصالحها وان تنمي مشاريعها وان تجمع ثروات طائلة وان تحيى حياة ناعمة تشهد عليها لوحات الفسيفساء .
وكانت هذه البورجوازية تقيم في مدن حفلت بوجودها جميع أنحاء البلاد الافريقية (وقع احصاء مائتي مدينة في نطاق حدود البلاد التونسية الحالية وحدها) وحاولت ان تجعل من تلك المدن بمعابدها وميادينها وحماماتها ومسارحها الخ.. صورة امينة لروما . وكانت هذه البورجوازية تشغل في تلك المدن المناصب « البلدية » المتنوعة وتتحكم في تسيير شؤونها تحكما مطلقا (اذ قلما تتدخل ادارة الامبراطورية في شؤونها اليومية العادية) وتضمن امتثال تلك المدن وولاءها للامبراطورية . وظلت تلك الفئة حتى أزمة القرن الثالث أمينة وفية ومكنت روما من استثمار مستعمراتها بأقل التكاليف .
الا أنه كان هناك ضحايا ومحرومون معظمهم من العامة من سكان المدن والارياف ممن لم تؤثر فيهم الحضارة الرومانية وقد قدرت نسبتهم آنذاك بخمسة اسداس السكان .

فوفرت ثمرة أعمال تلك المجموعات القوت للشعب الروماني ومولت خزينة الاكابر والاعيان ومكنت من تشييد مجموعة من الصروح المعمارية الرائعة والثقيلة التكاليف في نفس الوقت . وبقيت تلك المجموعات حتى من الناحية القانونية محرومة من منافع الحضارة الرومانية أو قل انها لم تكن تشارك الا في حمل اعبائها واوزارها . وأخطر من ذلك أن أقواما وشعوبا طردوا بأكملهم الى ما وراء التخوم نحو الجنوب المجدب والمناطق الجبلية الوعرة القاحلة ومن البديهي ان يناصبوا الاسياد الرومانيين العداء . ولم يتمكن هؤلاء الاسياد من تجنب الخطر مدة طويلة الا بجلب رؤساء قبائل البلاد الى صفوفهم وجعلهم من حلفائهم وأنصارهم .

وسيزيد ضعف الامبراطورية بداية من القرن الثالث وأزمات العهود المتأخرة في حدة هذه التناقضات كما انها ستمهد لانهيار صرح الحضارة الرومانية . ورغم ما عرفته بعض المدن من ازدهار منقطع في القرن الرابع ورغم ما وجد في الضيعات الشاسعة من حياة البذخ (التي تشهد عليها لوحات الفسيفساء) تعددت الانذارات وتراكمت وأخـــذ الصرح يتصدع : فقد اجتمعت القبائل البربرية على حدود المقاطعة الجنوبية مكونة أحلافا قوية وأصبحت تمثل حواجز منيعة تصد الهيمنة الرومانية وتقف في وجهها . وأخذت المبادلات التجارية في الركود وتأزم الاقتصاد النقدي نتيجة أسباب خارجة عن نطاق البلاد الافريقية وحدها.على ان هذا التقهقر وقع في زمن متأخر بالنسبة الى بقية الاقطار الاخرى .

ونتيجة لذلك أخذت المدن تسير نحو التداعي والتقهقر مفسحة المجال لازدهار « الاقطاعات » العقارية الشاسعة واثراء اصحابها . واحتدت الصراعات بين مختلف الفئات الاجتماعية دافعة الى الثورة أقصى عدد من بين الضحايا المحرومين والذين لم تستوعبهم الحضارة الرومانية : مثل سكان الجبال من البربر والقبائل المستقرة في مرتفعات نوميديا . وسرعان ما التحق بهم عمال المزارع الكبرى الذين جعلهم

التطور الاجتماعي والوضع المتأزم فريسة لنفوذ أسيادها المطلق أو هدفا لاعتداءاتهم . وقد عرفت ثورة عمال الارض على السلطة في افريقية وقد اصبحت ظاهرة متأصلة فيها بحركة المتسكعين أو الصعاليك المتمردين على السلطة (les circoncellions) وستنظم هذه الحركة الى المذهب الدوناتي (1) الديني ليؤلفا موجة معارضة اجتماعية واسعة النطاق تقاوم كل شكل من اشكال التسلط والقهر والعذاب . وكانت المسيحية قبل انتصارها الرسمي في عهد قسطنطين Constantin سنة 313 دينا وجد فيه الفقراء بعض العزاء والامل ، ومثلت شكلا من اشكال المعارضة للامبراطورية الرومانية . وينبغي أن نبحث في هذا الاتجاه حتى نقف على سر انتشار هذه الديانة المتواصل في افريقيا منذ أواسط القرن الثاني الميلادي . فبعد مضي قرن أي في عهد اسقف قرطاج الكبير القديس سبريان Saint Cyprien كان عدد الاساقفة بالمقاطعة الشرقية من شمال افريقيا يفوق عدد الاساقفة ببلاد الغال la Gaule بأكملها فقد كانت الكنيسة الافريقية في القرن الرابع الميلادي تعد ست مائة اسقف مقابل مائةفقط في بلاد الغال . لكن المسيحية الافريقية عرفت حتى قبيل الاعتراف بها رسميا سنة 313 خلافات داخلية خطيرة : فقد اصطدم المغالون المتصلبون مع « السياسيين » المعتدلين خاصة في شأن طرق التصرف تجاه الاضطهادات وكيفية مواجهة السلط الدنيوية . وبلغ انقسام المسيحية ، زمن انتصارها اقصاه فكنت تجد فيها الدوناتيين(1) الراديكاليين وأصحاب الاعتدال . وسرعان ما انضم قسطنطين الى هذا الشق الاخير ورفع أصحاب الاعتدال بأن نصّبهم على رأس الكنيسة . ومنذ ذلك الحين كونت السلطة الدينية أي الكنيسة مع السلطة الدنيوية والاعيان على اختلاف اصنافهم تحالفا دائما لم ينخرم الا في حالات خاصة ودخلت ضمن زمرة المدافعين عن النظام العام والاستقرار

1) دوناتي : نسبة الى الدوناتية والى بدعة دونات Donat اسقف قرطاجنة في القرن الرابع الميلادي .

الاجتماعي. ونتج عن ذلك أن امتزج شيئا فشيئا أصحاب مذهب الانشقاق الديني الدوناتي برجال الثورة الاجتماعية وانصار الحركات الانعزالية مثل تلك التي قادها فرموس Firmus القبائلي سنة 375 .

وكان القديس اقوستان Saint Augustin (354 - 430 م) المولود بطاغست Thagaste (سوق أهراس الحالية) والذي تعلم بقرطاج ، بلا منازع أعظم رجال الكنيسة وألمعهم في افريقيا . وقد تمكن من نشر المذهب المسيحي السني بافريقيا في بداية القرن الخامس بفضل مقدرته الرهيبة على الجدل وكذلك بفضل ما كانت السلط تنشره من « ارهاب نافع » ضد المنشقين كلما دعاها القديس لذلك. لكن الكنيسة الرسمية كانت متحالفة في ذلك الوقت أكثر من أي وقت آخر مع الدولة الرومانية والارستقراطية العقاريه تلك الطبقة التي أخذت تدعم مكانتها الاجتماعية والسياسية أيام تدهور المدن ونخبها المالكة المسيرة . وأصبح مصير الكنيسة مرتبطا شديد الارتباط بمصالح دنيوية مما جعلها تسير بلا هوادة نحو التفكك والفناء . فانخرمت الهياكل الدينية المسيحية بانخرام النظم السياسية والاجتماعية أيام ازمة القرن الخامس الميلادي .

وفي سنة 429 م نزل على السواحل قرب طنجة حوالي 80.000 رجل من **الوندال** الجرمانيين وأصلهم من شبه **جزيرة يوتلاند**(1) Jutland وفي ظرف عشر سنوات احتلوا افريقيا الشمالية بأكملها واستقروا بقرطاج وجعلوا منها عاصمة لاول مملكة من ممالیك البربار(2) المستقلة واستأصلوا جذور الارستقراطية العقارية وهاجموا الكنيسة الكاثوليكية باسم **الاريوسية** (3) Arianisme وقد كانوا من معتنقيها . ومع ذلك لم يكن لهذه الاحداث كبير الاثر في حياة طبقات الفلاحين الذين

1) يوتلاند : منطقة في أواسط بلاد الدنمارك حاليا .
2) البربار : بالنسبة للرومان هم كل الشعوب الاخرى غير الرومانية .
3) الاريوسية : مذهب أريوس الذي كان ينكر وحدة جوهر الاقانيم الثلاثة وينكر بالتالي ألوهية المسيح .

قابلوا ـ في الظاهر ـ انتقال الحكم الى اسياد آخرين باللامبالاة . ولعلهم استفادوا من هذا التحول بعض الاستفادة بتخفيف الضرائب الناتج عن اختلال جهاز الادارة الرومانية المعقد وبسقوط ما كانوا يدفعونه من ضرائب لفائدة الامبراطورية (مثل القموح التي كانت تقدم جباية لروما).
ومن ناحية أخرى اجتمعت القبائل البربرية التي لم تقدر روما على اخضاعها او على ادماجها في كيانها لتكون أحلافا وقوى مستقلة لا في أقصى بلاد المغرب ووسطها فحسب بل حتى داخل حدود البلاد التونسية الحالية : ففي سنة 510 م اتخذ **الفركساس** Les Fraxinenses منطقة تالة والقصرين مقرا لامارتهم ، واستقر غيرهم في منطقة قفصة وفي جبال الجنوب التونسي . وشنت تلك القبائل حملة عنيفة على المدن وزعزعت طرق عيشها وأركان ثقافتها (اللاتينية والمسيحية الكاتوليكية) حتى ان الحضارة الرومانية الافريقية جنوب السلسلة الظهرية التونسية أو قل ما بقي منها هناك أصبح منحصرا في بعض المدن الساحلية أو في بعض المراكز الداخلية .
وبدأ نظام دولة **الوندال** بدوره يختل شيئا فشيئا اذ بذوبانهم في المجتمع الافريقي (80 ألف مقابل مليونين من السكان على أقل تقدير) وباعتناقهم حضارة البلاد المتقدمة التي استقروا بها فقد غزاة **جانسريك** Genseric عصبيتهم وخصالهم الحربية . وعندما حل بالبلاد 16 ألف جندي بعث بهم من القسطنطنية الامبراطور **يوستينيان** Justinien سنة 533 انهارت دولة الفندال كحصن من الورق .
وزعم **البيزنطيون** انهم سيعيدون ما كان لافريقية من نظام وحضارة في العهد الروماني . فاستقبلهم رجال الكنيسة والارستقراطية القديمة بحماس ، واستقبلتهم العامة باللامبالاة . وفي الواقع لم يحتل البيزنطيون سوى جزء من افريقيا أي شمال البلاد التونسية ومقاطعة قسنطينة والسهول الساحلية وبعض المراكز الاستراتيجية الهامة في الداخل . أما بقية المناطق فقد استعادت فيها القبائل البربرية سيادتها وانتظم أمرها منذ ذلك العهد انتظاما متينا .

وكانت الشؤون العسكرية تمثل مشكلا حادا بالغ الاهمية . لذلك اضطر البيزنطيون الى تجميع كل السلط العسكرية والمدنية بين يدي قائد واحد (**اكزرخس** Exarques) وأحاطوا مستعمراتهم بسلسلة من الحصون المنيعة حموا بها أهم المسالك والطرقات والتخوم المهددة مثل **حيدرة** Ammaedara **وتبرسكوم** Thubursicum Bure (تبرسق) **وتقنيكا** Thignica (عين تونقة) .
ومن ناحية أخرى سعى البيزنطيون الى أحياء المسيحية الارثودوكسية والى استئصال الاريوسية (1) والدوناتية (2) ومذهب القائلين بوحدة ذات المسيح وغيرها من « البدع » الصادرة عن الشرق القاق الزاخر بمثل تلك المعتقدات . واضحى المذهب الكاثوليكي بعد احيائه مناهضا لبقية المذاهب غير متسامح معها لكنه سرعان ما تمزق بفعل ما جد فيه من بدع وخصومات « بيزنطية ».وفرضت الكنيسة سلطتها المادية والروحية على السواء في ذلك العالم المنهار وربطت من جديد وبصورة نهائية مصيرها بمصيره . ولا شك ان المسيحية قد جلبت شعوبا واناسا من عبدة الاصنام (في الفزان وبلاد الجريد) لكن يبدو ان اعتناقهم لهذه الديانة كان سطحيا وعرضة لمختلف الانحرافات (مثل الدوناتية المتصلّبة ومذهب القائلين بوحدة ذات المسيح) .
واضحى العمران عرضة لاضطرابات البوادي وضحية لتقهقر الاقتصاد النقدي فانكمش خلف الاسوار وتقلص في عالم يسير نحو البداوة . اما في الارياف والمناطق التي امتد اليها النفوذ البيزنطي فقد تحول وضع الفلاحين الصغار وعمال الارض شيئا فشيئا الى حالة شبيهة بحالة الاقنان وذلك بسبب تجمع الاملاك العقارية في حوزة أفراد قلائل ونتيجة لاحتكارهم القوة المادية والنفوذ السياسي والاداري.وفيما عدا ذلك من الجهات كانت القبيلة بمختلف نظمها صاحبة السيادة . ومع ذلك يبدو ان القسم الشمالي من تونس او ما كان يوافق المقاطعة البروكنسولية (Proconsulaire) وسهول بيزاسان Byzacène الساحلية قد احتفظ ببعض الازدهار حتى أواسط القرن السابع : فقد تواصل

تصدير القموح الافريقية نحو القسطنطينية وكانت غابات الزيتون في مناطق الوسط محل اعجاب الفاتحين العرب الاوائل الذين قدموا من صحراء الجزيرة العربية حتى خيل اليهم انهم اكتشفوا في افريقية جنة ارضية .

وانهارت الهيمنة البيزنطية في النصف الثاني من القرن السابع تحت ضربات هؤلاء الفاتحين واندثرت معها الديانة المسيحية والثقافة اللاتنية بافريقيا .

لماذا فشلت الحضارة الرومانية الافريقية هذا الفشل بينما سيحقق العرب والاسلام نجاحا دائما متواصلا ؟ هناك مشكل لا يزال قائما من الصعب حله . ومن حقنا ان نتساءل الى اي حد كانت « رومنة » البلاد عميقة تامة كما ذهب اليه بعضهم في وقت من الاوقات .

من الاكيد ان اقلية فقط من أصل **لوبي أو بونيقي** أثرت فيها الحضارة الرومانية تأثيرا حقيقيا عميقا وخاصة البورجوازية « البلدية » والنخب المحلية أما العامة فقد كان تأثرها بتلك الحضارة طفيفا سطحيا باستثناء ما قد يكون لحق أهل المدن الكبيرة مثل قرطاج وضواحيها القريبة. ولا تزال المشكلة قائمة حتى في الميدان الجغرافي والاجتماعي الذين اشتهرا باندماجهما التام في الحضارة الرومانية : فهل انقلب الافارقة الى رومانيين وهل بلغت الرومنة أعماق نفوسهم ؟ ان خلاصة بعض الدراسات الحديثة التي تعرضت بالفحص للمعتقدات أو الاسماء الاعلام تحمل القاريء على الحذر من الحلول النهائية ، وعلى الميل الى تنويع الاراء (1) .

فبالنسبة للميدان الديني يبدو ان الآلهة اليونانية الرومانية قد غزت بالفعل افريقيا ولا أدل على ذلك من تلك المعابد التي اقيمت للثالوث : جوبيتار Jupiter وجونون Junon ومينارف Minerve والتي لا تزال قائمة وسط انقاض المدن الرومانية الكبرى (دقة وسبيطلة وتبربومايوس) الا اننا اذا استثنينا تلك المعابد الرسمية التي أقيمت ولاء

1) م. بنبو : المقاومة الافريقية لسياسة الرومنة . باريس 1976 .

وتقديسا لآلهة المنتصرين وتعمقنا بعض التعمق في المظاهر العادية للديانة اكتشفنا خلف ذلك الحجاب اليوناني الروماني واقعا مختلفا عن ذلك كل الاختلاف : اذ نجد ارضية **لوبية بونيقية** لم تتغير وتشكل في الغالب تأليفا غريبا حافظ فيه المغلوبون على أهم معتقداتهم ولنا في الاله **زحل** Saturne أفضل مثال على ذلك : فقد عبد الافارقة هذا الاله اليوناني الروماني المخلوع وأحلوه محل الاله البونيقي الاعظم بعل حمون وغالبا ما اسندوا للاول ما كان للثاني من تفوق وعظمة . وقد يكون الاله زحل الافريقي هذا (على حد قول لوقلي Leglay) مسؤولا عن « جعل رومنة الارواح مستحيلة» واذا ما تثبتنا في المراحل التي مرت بها عبادة الاله زحل في العهد الروماني لاحظنا ان عبادته قد اقتصرت حتى نهاية القرن الثاني الميلادي على تبتل الطبقات الشعبية الحقيرة مما جعله يحتل مرتبة متواضعة بين آلهة القوم وبعد ذلك التاريخ اتخذته البورجوازية الرومانية الافريقية الها رسميا وبرز ظافرا في مقدمة المحافل .

ثم ان « الرومنة » كذلك على عمقها وتغلغلها لم تتمكن ابدا من القضاء على رصيد الاسماء اللوبية البونقية القديمة ، بل اننا نلاحظ منذ نهاية القرن الثاني كما هو الشأن بالنسبة للآلهة أن بعض الاسماء الافريقية القديمة قد وقع احياؤها وذلك برجوع النخبة لتقاليد البلاد وعاداتها . فكأن البورجوازية الرومانية الافريقية منذ زمن معين شعرت بالثقة في النفس وأدركت مالها من خصوصية وقوة فاصبح بامكانها العودة الى التقاليد المحلية بدون حرج ، وغدت قادرة على ان تظهر لتلك التقاليد على رؤوس الملأ ولاء كانت تخفيه حتى ذلك الوقت كل الاخفاء وراء مظاهر الاستقامة والانضباط في صلب المجموعة . وقد يكون وجد لدى النخبة الافريقية بعض الشعور « بالوطنية » : ألم نشاهد بداية من زمن ما اجلال الوطن الافريقي وتعظيمه في شكل الآلهة **أفريكا** Africa. على أنه لا ينبغي ان يغيب عنا ان الحضارة الرومانية لم تكن أبدا حضارة التداخل والتمازج والفوارق الطفيفة على حد قول بينابو Bénabou

ومن المحتمل أن الافراد او الفئات الاجتماعية الذين اعتنقوا هذه الحضارة في افريقيا لم يقبلوها ككل برمتها وبدون رجعة ، أما الذين رفضوها فلم يتركوا جانبا جميع ما أتت به تلك الحضارة . ومن الممكن كذلك أن تكون هذه « الرومنة » قد حصلت بالنسبة للاغالبية بصورة جزئية . فنشأ عن ذلك مجتمع افريقي معقد التكوين متعدد المظاهر وافراد موزعون بين مؤثرات عديدة ونظم ثقافية متنوعة المصادر . اما المجموعة التي اثرت فيها الحضارة الرومانية تأثيرا جزئيا والتي صارت اهم المجموعات من حيث مكانتها الاجتماعية واشعاعها الثقافي في المقاطعة **البروكنسولية** (تقريبا البلاد التونسية الحالية) فمن الممكن أن تكون قد مثلت أضعف حلقة من حلقات المجتمع الافريقي حسب قول بنبو . فبعد أن كانت عاملاً فعالاً في رومنة البلاد في عصر قوة الامبراطورية وازدهارها تحولت هذه المجموعة ايام الشدة وفي عصر انحطاط تلك الامبراطورية الى عامل يفسخ تلك « الرومنة » فهيأت الميدان لانتصار ثقافة اخرى : وهي الثقافة الاسلامية .

العهد العربي

منتصف القرن السابع - بداية القرن السادس عشر ميلادي

هذه الفترة هي ما يسميه المؤرخون الاروبيون « بالعهد الوسيط » أو « القرون الوسطى » إذ تقع في نظرهم بين العهد الإغريقي - الروماني المزدهر من ناحية والنهضة الأروبية الكبرى التي تفتح العصور الحديثة من ناحية أخرى . فالتسمية اروبية لا دلالة لها بالنسبة للدول العربية .

ولذا سنتركها جانبا ولكننا سنعتبر المرحلة التي تمتد من اواسط القرن السابع الى بداية القرن السادس عشر - ميلادي - كوحدة متماسكة وكقسمة محلية رئيسية من تاريخ البلاد التونسية لأن حوادث هامة - محلية - قد فرزتها عما سبقها ولحقها من الفترات التاريخية .

فقد مثلت الفتوحات العربية في القرن السابع بلا منازع قطيعة عن العهد الماضي كما ظهرت في بداية القرن السادس عشر وضعية جديدة حدثت نتيجة تدخل قوات خارجية ونتيجة ضرورة التكيف مع معطيات جديدة في ميداني الحرب والسياسة وغيرهما . واعتنقت بلاد المغرب في هذه الفترة من الزمن الدين الاسلامي بصورة نهائية وتعربت بصورة متفاوتة حسب الجهات .

كما استطاعت ان تبلغ درجة كبيرة من الازدهار في ظل الحضارة العربية بل انها تمكنت في وقت ما من الحصول على استقلالها السياسي ومن بلوغ أوج نضجها الثقافي . ومن البديهي أن نميز خلال هذه الفترة

التي تكاد تبلغ الف سنة مراحل عديدة هي : عصر الفتوحات وازدهار افريقية العربية ثم عصر التدهور والبحث عن توازن جديد .

I ـ من الفتح العربي الى الزحف الهلالي

1) ـ الفتح العربي وحركة نشر الاسلام

كان نفوذ البيزنطيين ـ عند قدوم العرب ـ ممتدا على السواحل وخاصة شرق بلاد المغرب لكنه كان محفوفا بظروف صعبة سواء من الناحية الاقتصادية ـ الاجتماعية او من الناحية السياسية ـ الدينية . فكانت الفرصة سانحة لظهور فاتحين جـــدد . اما في غيــر هذه المناطق فكنت تجد مجموعات مستقلة من البربر تنتظم على اساس القرابة العائلية ويدعمها في بعض الحالات أخذ عن النظام الروماني ـ البيزنطي في فنون السياسة والاقتصاد . ويبدو أن الديانة المسيحية قد انتشرت انتشارا واسعا ، ولكنها ظلت تمزقها في الحواضر وفي شرق بلاد المغرب « الخصومات البيزنطية » (وخاصة مذهب القائلين بوحدة ذات المسيح) ، أما في اعماق البلاد أي بين البربر فقد كانت هذه الديانة ممزوجة بالمعتقدات المحلية السابقة او مقتصرة على مجرد اعتقاد سطحي في وحدانية الاله .

وقد يبدو غزو هذه البيئة المنقسمة سهلا يسيرا لكن الامر كان على عكس ذلك. فقد دامت الحروب ثلاثين سنة عرف فيها العرب ظروفا صعبة قاسية منذ تأسيس مدينة القيروان سنة 670 حتى تنظيم ولاية افريقية في بداية القرن الثامن على يدي موسى بن نصير . لكن قرطاج دمرت في نهاية الامر ورمي بالبيزنطيين بحرا وغلب البربر المستقرون شرق بلاد المغرب وعلى رأسهم تلك الشخصية الغريب شانها : الكاهنة . وامكن للقائد موسى بن نصير بعد ذلك أن يفتح بقية بلاد المغرب وينشر الاسلام فيها فقد مضى حتى تافيلالت Tafilalet وطنجة ومكن معتنقي الاسلام الجدد من المشاركة في الفتوحات وذلك بتوجيههم ـ بقيادة احد اتباعه من البربر طارق بن زياد ـ لفتح اسبانيا الفـزيقوتية

Wisigothique سنة 711 لكن المقاومة لم تنقطع رغم ذلك انما اندمجت في اطار ايديولوجي اسلامي وهذا دليل على ان الاسلام تغلغل في النفوس بصفة لا تراجع فيها . وابدى البربر رغبة كبيرة في تقبل مذهب الخوارج وذلك للوقوف في وجه الهيمنة السياسية والاجتماعية التي كانت تسلطها أقلية العرب الفاتحين . وكان ذلك المذهب قائما على الصرامة من ناحية والمساواة من ناحية أخرى، وقد نشره في بلاد المغرب دعاة من الشراة الغلاة قدموا من الشرق . وفي نهاية الامر استطاع المذهب السني والسلطة المركزية في دمشق ثم في بغداد ان ينتصرا في الجزء الشرقي من بلاد المغرب بفضل حملات الجيوش المتعاقبة من الشرق وبعد معارك شديدة (360 معركة على ما يروى) . ولا ريب في أن الاعيان من الحضر وذوي الحياة المستقرة ـ وهم كثيرون في سهول افريقية ـ كانوا يرغبون في انتصار السلطة المركزية باسم الحفاظ على النظام واستتباب الامن .

وظل التفوق والسيادة للمنشقين المتشيعين واصحاب النزعات الاستقلالية في غرب البلاد حيث كان نفوذ المجتمع الحضري ضعيفا والنظام القبلي قويا وحيث كانت الجبال والمرتفعات تمثل موانع طبيعية عديدة فاقام هؤلاء المنشقون مملكة « تاهرت » في القسم الاوسط من الجزائر في 776 ـ 778 ، ثم مملكة « سجلماسة » في الجنوب الغربي وأخيرا قامت دولة ادريسية شمال المغرب الاقصى في سنة 788 .

ومهما تكن النزعات الاديولوجية او الاتجاهات السياسية في الاسلام فقد انتشر هذا الدين وانتصر في بلاد المغرب في القرن الثامن واكتسب الفتح العربي دواما وتواصلا ميزاه عن الغزو البونيقي او الغزو الروماني الذين سبقاه . وبدأت تقوم شيئا فشيئا حضارة جديدة لغتها العربية ومنطلقها الدين في افريقية وخاصة في عاصمتها القيروان التي عرفت ازدهارا ماديا وثقافيا بعيد المدى حتى قبل سنة 800 نفسها تاريخ

حصولها على استقلالها السياسي .

2) ـ افريقية من بداية القرن التاسع حتى نهاية القرن الحادي عشر .

رغم الاعتراف الرسمي باستقلال أمير القيروان سنة 800 ما فتئت افريقية تدعم علاقاتها الاقتصادية والبشرية والثقافية مع بقية العالم الاسلامي كما انها قطعت في نفس الوقت أشواطا في استيعاب مختلف الاجناس اجتماعيا وثقافيا وفي تدعيم شخصيتها بين مجموعة البلدان الاسلامية.

أ ـ افريقية الاغلبية : (800ـ909) . كانت افريقية تمتد في ذلك العهد من سواحل طرابلس حتى غرب قسنطينة وكانت بفضل ما بلغه عمرانها من تقدم نسبي وبما فيها من أراض خصبة يسهل استثمارها ترحب بقصادها من الرجال والمنتوجات والمذاهب والاراء . وقد خضعت مضطرة للسلطة العربية التي فرضتها عليها حملات الجيوش المتعاقبة من الشرق . أمـــا الاعيان والحضر من السكان الاصليين الذين اختلطوا اختلاطا بعيد المدى بالوافدين الجدد (مائة الف تقريبا) فقد قبلوا الوضع الجديد لضرورة المصلحة اذ لا بد انهم استحسنوا استتباب الامن والنهضة الاقتصادية واتساع الاسواق . واذا تأملنا جال مدن مثل القيروان وتونس وقسنطينة لاحظنا بعض الامتزاج بين الغزاة الفاتحين والسكان الاصليين من الناحية البشرية والثقافية .

فاخذت تنشأ في هذه المدن بيئة عربية ـ افريقية لها خصائصها . وليس من الغريب أن يولد هذا الوسط نظاما سياسيا جديدا وهو الامارة الاغلبية .

ففي سنة 800 م استطاع ابراهيم بن الاغلب الوالي العربي على مقاطعة الزاب (جنوب قسنطينة) أن يحصل من الخليفة العباسي ببغداد على استقلال واسع مقابل مقدار من المال يدفعه ضريبة . وكانت سلطته تمتد نظريا على كل بلاد المغرب لكنه لم يكن يسيطر في الواقع الا على الجزء الشرقي منه وخاصة على سكان المدن واصحاب الحياة المستقرة الذين استبشروا بعودة عهد رفاهة وازدهار لم يعرفوه منذ عهود

بعيدة. اما مناطق الجبال البربرية مثل جبال نفوسة وجبال الاوراس وجبال « القبائل الصغرى » فقد كانت تحيط بها حاميات عربية قوية تحرسها حراسة شديدة لكن بدون أن تتخطى حدودها المنيعة أبدا (فلم يكن يدخلها سوى الاسلام ومن قام بنشر كلمته) .
وقامت الدولة الاغلبية في أول الامر على الارستقراطية العربية التقليدية المنتشرة في الادارة والجند . وقد كان الجند متكونا من مجموعات قبلية . لكن تمرد الاعيان والاسياد العرب (مثل عائلة التنبذي في تونس) وثورات الجند جعلت الامارة أكثر من مرة على قاب قوسين أو أدنى من الخراب بين سنة 800 و 836 م . واتعظت الامارة الاغلبية بهذه الاحداث واصبحت تحذر طبقة الفاتحين العرب فانتقلت على غرار الخلفاء العباسيين لتقيم في ضاحية منيعة شيدت بعيدا عن القيروان وهي العباسية واسندت المناصب الهامة شيئا فشيئا الى الموالي او الى سكان البلاد الاصليين البعيدين عن كل طموح سياسي . كما وقع الاستغناء عن قسم من الجند العربي في الاول ثم وجه بأكمله الى فتح جزيرة صقلية فشغل هذا العمل القوات العربية مدة طويلة (من 827 الى 902 م) . ومنح امراء القيروان ثقتهم عناصر عسكرية اختاروها من بين العبيد المجلوبين من افريقيا السوداء أو من أوروبا (حراس العباسية الزنوج أو الصقالية أصيلي اروبا الشرقية) . وبهذه الصورة تطور النظام الاغلبي شيئا فشيئا نحو الحكم « الملكي » patrimonialisme (بالمعنى الذي وضعه فيبر Weber لهذه الكلمة) فابتعد عن القوى الاجتماعية المتناحرة (الارستقراطية العربية العسكرية أو الدينية والاعيان من سكان البلاد الاصليين المستعربين وغير المستعربين والقبائل الكبرى) تلك القوى التي لم تستطع أية واحدة منها ان تفرض هيمنتها وتفوقها . وصار أمراء بني الاغلب يفرضون ارادتهم على الجميع .
وشهدت الامارة الاستقرار ابتداء من سنة 840 - 858 م وكذلك بقية البلاد بفضل انتشار الامن فيها وبانضمامها الى السوق الواسعة

الممتدة على كامل الامبراطورية العربية ، وامتدت المساحات المزروعة من جديد ولم تقتصر على سهول الشمال المعهودة حيث كان يزرع القمح وعلى غابات الزيتون الممتدة في الشرق بل شملت حتى مناطق الوسط والجنوب (حول القيروان وقفصة وسبيطلة وقابس) بفضل ما أنجز من أعمال لجمع الماء وللري . وتنوعت المنتوجات موفرة القمح والزيت ومواد جديدة مثل الزعفران والقطن والكتان والحرير . وشهدت الصناعات انطلاقة عظيمة مثل استخراج المعادن من مجانة (شمال شرقي تبسة) وصناعة السفن في تونس وصنع الاقمشة الرفيعة في القيروان وسوسة وقابس وصناعة الزجاج والخزف والجلد الخ... كما شهدت التجارة تقدما هاما واصبحت طرقها تربط بين القيروان وأروبا المسيحية حيث كانت تسوق البضائع المصنوعة مقابل استيراد العبيد (من الصقالبة) وتربط القيروان كذلك باواسط افريقيا ـ مصدر التبر والعبيد من الزنوج ـ وبالشرق الثري وقد كان يصدر نحوه خاصة العبيد وبعض المنتوجات المحلية مثل الزيت . أما الفضل في رواج تلك التجارة وتقدمها فيرجع بالخصوص الى استخدام تقنيات شرقية الاصل متطورة تطورا باهرا بالنسبة لذلك العصر لا سيما في ميداني البنك والبريد .
وكان المجتمع لا يزال يتميز بوجود طبقية اجتماعية موروثة من عصر الفتوحات لكن الفوارق بين الاجناس بدأت تضعف في أعلى السلم الاجتماعي عن طريق الاختلاط الطبيعي وبفضل تعيين النخبة المحلية في المناصب العليا : فقد كانت خدمة الامير والمهام الادارية والدينية تكسب اصحابها الشرف . وكانت التجارة تثري القائمين بها . اما في الدرجات السفلى من السلم فنلاحظ ارتفاع عدد العبيد في المدن وحتى في الارياف . لكن هل يمكن أن نقول ان نظام الانتاج في هذا المجتمع كان يقوم على اساس الرق ؟ نحن نشك في ذلك .
ومن ناحية أخرى يبدو ان افريقية قد عرفت شبه نهضة عمرانية يشهد بها ازدهار المدن وانتشار الفلاحة المستقرة على حساب القبائل الرحل . لكن هذا التوازن الذي تحقق في عهد الاغالبة والذي امتد على جزء

كبير من القرن التاسع انخرم.فجأة قبل نهاية ذلك القرن نفسه : أفلا يمكن أن نرى في تصرفات ابراهيم الثاني (875 ـ 902) الجنونية الوحشية آخر المحاولات اليائسة لتذليل الصعوبات ولإزالة الخلافات . وتبين هذه الخلافات بصورة جلية ظهور تناقضات قوية لا تقهر وبروز توتر اجتماعي خطير وتتمثل أجلى هذه التناقضات ـ ومن الاكيد انها ليست الوحيدة ـ في الخلاف القائم بين أقلية من الحضر العرب او المستعربين وبين مجموعة كبيرة من السكان البربر المحتقرين المستغلين : ويكفي ان تثور واحدة من تلك المجموعات البربرية منادية باسم مذهب من مذاهب المعارضة الاسلامية لينتهي امر الدولة الاغلبية . وهذا ما حدث سنة 909 م .

ب ـ **الفاطميون في بلاد المغرب** (909ـ973) : يعتقد الفاطميون أنهم من سلالة علي وفاطمة بنت الرسول ، لذلك اعتبروا انفسهم دون غيرهم الورثة الشرعيين للخلافة الاسلامية فقاوموا « المغتصبين » من العباسيين الذين استقروا ببغداد . وتنضاف الى هذه الغاية السياسية المشتركة بين كل اطراف الشيعة (انصار ذرية علي) اهداف تطمح الى الثورة الاجتماعية التي سيحققها المهدي المنتظر ذلك الوارث الشرعي للخلافة والرجل الملهم الذي سينقذ العالم ويعيد له الحق والعدل . فقد قام أحد الدعاة الفاطميين بين البربر في بلاد القبائل « الصغرى » بالجزائر وقادهم الى احتلال الامارة الاغلبية (من سنة 902 الى سنة 909) ودخل المهدي الفاطمي القادم من الشرق القيروان دخول المنتصرين في بداية سنة 910 وتلقب بالخليفة . الا ان الفاطميين لم يحققوا ما وعد به دعاتهم من أمن وازدهار بعد توليهم الحكم . فاقتصروا على مواصلة السير وفق العادات الاغلبية مع ادخال بعض التغييرات عليها . وهذا بالاضافة الى سياسة دينية شيعية نفرت الفقهاء المالكيين ـ هؤلاء الممثلين في الواقع للمجتمعات الحضرية ـ بدون ان تتحصل على مساندة الخوارج من البربر . كما ارتفعت الضوائب لمواجهة سياسة خارجية طموحة ترمي الى الاستيلاء على

كامل الامبراطورية الاسلامية . ولهذه الغاية أسس الفاطميون على الساحل الشرقي سنة 921 المهدية وهي عاصمة جديدة ستكون منطلقا للحملات الموجهة ضد الشرق . كما عززوا جندهم بمجموعات مسلحة من البربر وخاصة من أتباعهم الاوائل من رجال كتامة بمنطقة « القبائل الصغرى » .

ولم تلبث الثورة أن اندلعت سنة 935 مزعزعة كل بلاد افريقية بقيادة أبي يزيد صاحب الحمار وهو فقيه من الخوارج ورجل حزم من بلاد الجريد التونسي . وكادت هذه الثورة أن تنتصر بعد أن اضطرت الخليفة الفاطمي الى ان يكتفي بعاصمته المهدية مملكة . وسرعان ما حاصرها صاحب الحمار وضيق عليها الخناق (944 ـ 946) . لكن انقسام الثائرين وعدم امتثالهم لقائدهم وما كان للخليفة الجديد المنصور بالله الذي تولى الحكم سنة 945 من حزم أكسب الخلافة نفسا جديدا ، واخيرا المساعدة التي قدمها زيري بن مناد ورجاله من بربر صنهاجة بالمغرب الاوسط للمملكة المتأرجحة ، كل هذه العوامل مكنت الفاطميين من تدارك الامر وقمع الثورة لا في افريقية وحدها بل حتى في أقصى مناطقها الجبلية بالمغرب الاوسط . وسلط الخليفة الفاطمي على الثائرين قمعا شديدا نتج عنه عودة الامن الى الارياف وانجر عنه كذلك القضاء النهائي على مذهب الخوارج بافريقية (اذ لم يبق من اتباعه الا بعض المجموعات القليلة العدد المعتدلة النزعة والمنزوية في مناطق نائية مثل المزاب وجربة) .

وتمكن الفاطميون بعد ذلك من الاهتمام بتحقيق مطامحهم التوسعية. فقد استطاعوا ان يسيطروا باعانة انصارهم من الزيريين (زيري بن مناد وعشيرته) على المغرب الاوسط غربا وخاصة على طريق تاهرت ـ سجلماسة التي كانت تمثل امتدادا لطريق القوافل عبر الصحراء(اي طريق التبر المستورد من السودان).اما في المغرب الاقصى فقد كان نجاحهم على العكس وقتيا لم يدم وذلك لاصطدامهم هناك بمطامح الأمويين من الاندلس المعادية لمطامحهم . اما في اتجاه المشرق

فقد تمكنت الجيوش الفاطمية بقيادة المولى جوهر الصقلي من الاستيلاء على مصر سنة 969 . واسس الفاطميون عاصمة جديدة هي القاهرة وانتقلوا اليها نهائيا سنة 972 . فلم يكن المغرب بالنسبة اليهم اذن سوى فاصل وقتي او مرحلة من مراحل تحقيق احلامهم التوسعية العالمية .

وسار الفاطميون على درب الامراء الاغالبة سواء في ميدان الحضارة المادية او الحياة الثقافية . فشجعوا تطور الحياة الاقتصادية بافريقية واسهموا في ازدهار الحركة الثقافية بها . فكان القرن التاسع باستثناء فترة ثورة الخوارج قرن ازدهار مادي يشهد به جودة العملة الفاطمية وتنويه رحالة ذلك الوقت واطراؤهم في احاديثهم عن ذلك العصر . كما مكنت الموارد المادية التي وفرتها البلاد للخلفاء الفاطميين من تشييد مدن جديدة مثل عاصمتهم المهدية والمنصورية التي اختاروها لاقامتهم قرب القيروان . ومن الملاحظ ان المدن في كل انحاء افريقية قد ازدهرت في خضم النهضة التي بدأت في القرن السابق . وادركت افريقية في الميدان الثقافي مرحلة النضج ويشهد على ذلك اعلام مثل العالم الطبيب ابن الجزار والشاعر ابن هانيء .

وولى الفاطميون عند انتقالهم الى مصر امر افريقية اتباعهم الزيريين من برابرة المغرب الاوسط (منطقة طيطري Titteri) وتركوا لهم بلادا في اوج ازدهارها .

ج ـ افريقية الصنهاجية او الزيرية (973 ـ منتصف القرن الحادي عشر)

غادر بنو زيري عاصمتهم أشير واستقروا قرب القيروان في صبرة المنصورية مقر اقامة الفاطميين سابقا . واصبحوا بذلك عرضة لفقدان خصائصهم وطبائعهم القبلية الاولى نتيجة اتصالهم بالوسط الافريقي الذي كان آنذاك في أوج ازدهاره ، ولئن حافظ الامير الزيري الاول : يوسف بلكين بن زيري (972 ـ 984) على خصائص القائد البربري الشديد وتصرف تصرف الوالي الامين فقد أخذ الذين جاؤوا بعده يحيدون شيئا فشيئا عن هذا السبيل الذي انتهجه مؤسس الدولة : فقد بدأ المنصور

يقطع صلته بالخليفة الفاطمي في القاهرة وسلك علانية سياسة افريقية استقلالية . أما المعز (1016 ـ 1062) صاحب القطيعة الرسمية مع المذهب الشيعي والقاهرة ، ذلك الامير المنكود حظه زمن الزحف الهلالي ، فقد اندمج كل الاندماج في افريقية التي كان يسوسها سياسة ملك مستقل والتي اعتنق مذهبها الديني أي المالكية .
ويبدو ان افريقية قد عرفت في القسم الثاني من القرن العاشر وفي بداية القرن الحادي عشر أياما مشرقة ازدهرت في ظلها الحياة الاقتصادية وتطور المجتمع نحو اتحاد الاجناس بتغلب الجنس العربي أو بعبارة أدق المستعربين وبتفوقهم ونشأ مركز لامع في القيروان يزينه الشعراء ورجال الادب مثل ابن شرف وابن رشيق . كما يشهد ما أضافه المعز داخل قاعة الصلاة بجامع القيروان من زخارف (خشب مخرم وأضواء ونقوش في السقوف) على ما بلغته الحضارة الافريقية في ذلك العصر من ابداع وترف . وقد يكون ذلك الاغراق في الترف روعة الغسق التي تنبيء بنهاية امر ذلك العصر خاصة اذ تذكرنا ان الزحف الهلالي على الابواب .
في سنة 1045 قطع المعز في حملة مدوية لم يسبق لها مثيل كل صلة مع الخليفة الفاطمي بالقاهرة وأنكر المذهب الشيعي معتنقا المذهب السني المالكي . ولا ريب أنه اتخذ هذا القرار تحت ضغط الوسط المحيط به المعادي للمذهب الشيعي وكان المعزّ قد أقام بين الافارقة من الشيعة مذبحة كبيرة سنة 1017/1016 . وقد أجمع المؤرخون القدامى على ان حادث القطيعة واعلان الاستقلال يمثل سبب قيام الزحف الهلالي : فقد أرسل الحاكم الفاطمي على افريقية جموعا لهفى تشكو الجوع من بدو بني هلال من الصعيد المصري عقابا « لوال » متمرد عاص فادخلوا الفوضى والاضطراب طيلة قرون متوالية . لكننا لا نستطيع ان نقبل هذه النظرة الجازمة المثقلة بالمفترضات الاديولوجية ولا ان نطمئن اليها كل الاطمئنان بل نذهب الى ان سقوط امارة افريقية الصنهاجية في منتصف القرن العاشر يعود في جزء كبير منه الى عوامل

داخلية جعلت بلاد افريقية قبيل الزحف الهلالي ميدانا هزيلا ضعيفا وكبحت فيه امكانيات ردود الفعل والمقاومة : فمن تلك العوامل الازمة الاجتماعية التي نتجت عما أصاب طرق الانتاج من تغير والتي تجلت في كثرة التطاحن في القطاع الفلاحي ومنها تلك الصعوبات التي عرفتها تجارة القيروان العالمية وتدل عليها وثائق الجنيزة بالقاهرة منذ بداية العقد الثالث من القرن الحادي عشر. أضف الى ذلك ازمة عقائدثة دينية تشهد عليها المذبحة التي ذهب ضحيتها الشيعة (1016ـ 1017) وأزمة سياسية تظهر من خلال انقسام الزيريين الى شقين : شق غربي استقر في قلعة بني حماد (بلاد الهدنة) وشق بالقيروان. وقد يتبادر الى الذهن افتراض آخر صح في أمصار وعصور أخرى. ألا يكون حدث في القرن الحادي عشر قسوة في الظروف المناخية راجعة الى الجفاف فقوضت الاسس الاقتصادية المادية لحياة الاستقرار وهيات الظروف الملائمة للبدو الرحل ؟ ومهما يكن من أمر فان منتصف القرن الحادي عشر وبداية الزحف الهلالي يمثلان منعطفا في حياة افريقيا. فقد بدأ آنذاك ما يشبه عصور الانحطاط .

II ـ افريقية من الزحف الهلالي حتى انحلال الدولة الحفصية

(أواسط القرن الحادي عشر ـ بداية القرن السادس عشر)

يمكن أن نقسم هذه الفترة في الجملة الى مرحلتين مرحلة اولى تميزها الازمة الداخلية والاخطار الخارجية والتجارب الفاشلة وتمتد من منتصف القرن الحادي عشر الى العقود الاولى من القرن الثالث عشر ، ومرحلة ثانية تتميز بتجربة الحفصيين وببعض الاستقرار النسبي .

1) إفريقية المتأزمة أو الباحثة عن التوازن

(منتصف القرن الحادي عشر ـ بداية القرن الثالث عشر)

دخل البدو الهلاليون افريقية حوالي سنة 1050 وهم يحملون عقود اقطاع منحهم اياها الخليفة الفاطمي ، وكانوا اقوياء بفضل عصبيتهم

القبلية وحنكتهم في الحرب . فسرعان ما ظهر تفوقهم العسكري اذ انهارت السلطة الزيرية منذ المعركة الاولى التي واجهت فيها الهلاليين أي واقعة حيدران (أفريل 1052) وهجرت الارياف والحقول وحل بها البدو الرحل وانقسمت البلاد الى امارات عديدة مستقلة او خاضعة لسلطة البدو : فقد احتلت القيروان ودمرت سنة 1057 بعد ان هجرها الامير الصنهاجي الى المهدية وفقدت بذلك نهائيا تفوقها وفي نفس الوقت غناها . وجمعت قفصة تحت نفوذها وقد انضمت الى الهلاليين مناطق الجنوب الغربي للبلاد التونسية حاليا وفرضت فيها بعض النظام.

اما قابس فقد استطاعت ان تحتفظ ببعض الازدهار وأصبح يحكمها أحد القواد العرب وذريته اما مدينة تونس فقد حاولت ان تحتضن التراث القيرواني من رجال وانشطة بفضل موقعها المنيع وانفتاحها على البحر واصبحت أهم مدينة بافريقية يحكمها حكام محليون هم بنو خرسان (نهاية القرن الحادي عشر ـ بداية القرن الثاني عشر) .

ولنذكر في النهاية الامير الزيري الذي التجأ الى المهدية واتخذها عاصمة له (عاصمة دولة منهوكة القوى متناهية في الضيق) حتى سنة 1148 تاريخ استيلاء النورمنديين عليها .

وادخل الهلاليون أو نشروا في افريقية التي غزوها النظام القبلي ـ الحربي وفي نفس الوقت حياة البدو الرحل القائمة على تربية الحيوانات فتقلصت الحياة الحضرية وانكمشت بصورة عامة حياة الاستقرار منحصرة في المناطق المحظوظة (مثل منطقتي تونس وقابس) . وانزوى قسم من السكان البربر في المناطق الوعرة محتمين وراء الجبال المنيعة وحافظوا هنالك على تقاليدهم . وسيقوم تباين دائم او سيحتد ما كان هناك من تناقض في افريقية وبقية بلاد المغرب بين المناطق الداخلية « العتيقة » والمناطق « المتقدمة » وهو تناقض لم تمح آثاره حتى اليوم .

ولم تبق لتلك المناطق « المتقدمة » وللمجموعات المسيطرة عليها (ولا سيما الاعيان من سكان المدن) سوى رقعة ترابية ضيقة زاد في ضيقها

انتشار البدو وحصول سكان الارياف المستغلين آنفا على كيانهم الذاتي ولم تجد تلك المجموعة في البحر سوى تعويضات ضئيلة اذ اصطدمت منذ النصف الثاني من القرن الحادى عشر بالعالم المسيحي وقد استيقظ حربيا واقتصاديا . فبينما اكتسح النورمنديون السواحل الشرقية لافريقية وانتهى بهم الامر الى فرض نظام الحماية (حوالي سنة 1130–1160) في كل المدن الساحلية باستثناء بعضها مثل تونس واحتكر التجار الايطاليون الجنويون والبيزيون المبادلات التجارية في البحر الابيض المتوسط واستقرّوا في تونس وباجة وغيرهما من المدن .

إنّ التدهور الاقتصادي بافريقية بداية من القرن الحادي عشر أمر ثابت لا ريب فيه . لكن ان نلقي مسؤولية ذلك على عاتق الهلاليين وحدهم كما فعل المؤرخون طيلة عصور طويلة موقف قد لا يخلو من المبالغة لان هذا التقهقر الاقتصادي لم يصب البلاد الافريقية دفعة واحدة بل تسرب اليها تدريجيا من القرن الحادي عشر حتى القرن الرابع عشر . وامتد على اطار جغرافي واسع كاد يشمل العالم العربي الاسلامي بأسره . فمن المؤكد أن الهلاليين قد حثوا سير افريقية نحو التدهور لكنهم لم يكونوا وحدهم المسبّب الرئيسي له . اضف الى ذلك اننا كثيرا ما تجاهلنا ما جاؤوا به من أمور ايجابية كالاسراع بتعريب البوادي والارياف والاهتمام بالتجارة الداخلية وربما بعض التحسين من مستوى عيش سكان البوادي والارياف (او قسم منهم) وذلك بانقطاع استثمار المدن واعيانها لهم . ولا ننس أن كل ما كتب من شهادات في هذا الشأن انما هو من وضع افراد ينطقون بلسان حال تلك الطائفة الاجتماعية نعني أعيان المدن فلا غرابة في أن يتهموا البدو الهلاليين بارتكاب كل الكبائر وان يصوروا انتصارهم داخل بلاد افريقية وكأنه يوم القيامة قد حل .

وما حصل بالتأكيد هو الانقسام السياسي الذي وقع بافريقية واستسلامها وعدم مقاومتها لمن قصدها من غزاة : فالى جانب القواد المحليين الذين اقتطعوا امارات في مختلف انحاء البلاد استولى النورمنديون

كما سلف ذكره على المراكز الساحلية وفرضوا عليها اتاوات . لكن سرعان ما ثار السكان في وجوههم لاسباب عديدة متنوعة لا لاسباب دينية فقط وذلك في صفاقس وجربة وجزر قرقنة وطرابلس (حوالي سنة 1157) .

وتم الفتح الاسلامي من جديد على ايدي الموحدين باسترجاع المهدية سنة 1160 . وينتمي الموحدون الى حركة ابن تومرت المتصلبة الصارمة التي انتشرت انطلاقا من الجبال البربرية جنوب المغرب الاقصى حوالي سنة 1130 . فبعد ان احتل الخليفة الموحدي المغرب الاقصى ومقاطعة تلمسان (1130 - 1147) ثم المغرب الاوسط حيث سحق بالخصوص القبائل الهلالية التي اعترضت سبيله (1151 - 1152) بدأ غزو افريقية فأخضع القبائل لسلطانه وطرد النورمنديين (احتلال المهدية المشهود سنة 1160) . فوحد بلاد افريقية بعد قرن من الانقسام وجعلها مقاطعة من مقاطعات امبراطوريته الواسعة . فعين بتونس (وقد اصبحت عاصمة) واليا ونصب فيها رجال الدين من الموحدين وأخضع كل الاراضي المستثمرة لضريبة الخراج تلك الضريبة التي لا يدفعها في الاصل سوى الكفار . ولم يصبر سكان افريقية على هذا الضيم فسرعان ما تخلصوا من حكم الموحدين الاستبدادي ورحبوا بمقدم قواد من المرتزقة ومن المطالبين بالحكم أتوا من كل قطر ليجربوا حظهم في القسم الشرقي (والاوسط) من بلاد المغرب . فقد ازعج الاخوان ابنا غانية - من سلالة الملوك المرابطين السالفين في المغرب الاقصى - الموحدين وولاتهم ايما ازعاج بين سنة 1184 و 1234 . وفي سنة 1207 عين الخليفة الموحدي واليا على تونس قائدا من اشهر القواد الموحدين هو عبد الواحد ابن ابي حفص ثم اسس ابناؤه فيها مملكة حكموها ما يربو على ثلاثة قرون .

2) إفريقية الحفصية في نهاية « القرون الوسطى »
(حوالي 1230 ـ 1574 م.)

اندمج الحفصيون-هؤلاء البرابرة القادمون من جبال الاطلس الاعلى بالمغرب الاقصى ـ بعد جيلين أو ثلاثة في الوسط الجديد وألفوا الحياة في افريقية بعد ان صاروا يحكمونها وتمكنوا من اقامة دولة كانت مدتها أطول ما عرفه تاريخ ذلك البلد . لكن لم يكن الامر خاليا من الازمات وردود الفعل العنيفة . ويقتضي واجبنا ان نوضح اسباب هذا النجاح من ناحية وأسباب نقط الضعف من ناحية أخرى .

لنذكر في البداية بأبرز المراحل في تاريخ هذه الدولة لقد اغتنم الحفصيون وهم ولاة افريقية التابعون للخليفة الموحدي بالمغرب الاقصى ازمة الامبراطورية الاسلامية الغربية ليكتسبوا كيانا ذاتيا عمليا (حوالي سنة 1228 ـ 1229) ثم استقلالا رسميا (1236) . ففي تلك السنة امر أبو زكرياء بان تقام الصلاة باسمه وهي صورة من صور الاستقلال .

وسرعان ما اخضع لسلطانه كامل الجزء الشرقي من بلاد المغرب من طرابلس حتى بجاية (مقاطعة قسنطينة) وفرض بعض النظام في البلاد والادارة . ووضعت القبائل العربية القوية خاصة حدا لاعمال الحرب والتمرد وأرغمت على الاعتراف بخضوعها لصاحب تونس . وواصل محمد الذي تولى الامر بعد أبي زكرياء والذي لقب بعد ذلك بالمستنصر (1250 ـ 1277) تلك الاعمال بأكثر نجاح : فقد تلقّب رسميّا بلقب الخليفة أو أمير المؤمنين . وفي خضم المصائب العديدة التي حلت بالعالم الاسلامي حوالي سنة 1260 اعترفت له بهذا اللقب دول عديدة في الغرب وحتى في المشرق ، فقد كانت افريقية في ذلك العصر موطن الامن والسلام وسط بلاد الاسلام الممزقة المغلوبة على امرها . وكان سلطانها يبدو وكأنه آخر قوة اسلامية لا تزال محتفظة بوزنها . فقد خيل للقديس لويس زمن قيادته الحملة الصليبية (الثامنة) ضد تونس سنة 1270 انه يضرب قلب الاسلام .

من العهد الحفصي بظهور الاضطرابات الداخلية من جديد وبانحلال الدولة شيئا فشيئا (انحصرت في نهاية الامر في مدينة تونس وما يحيط بها) وانتصاب الاسبان واستقرارهم في بعض المناطق الساحلية مثل حلق الوادي (1535 ـ 1574) الامر الذي دفع شارل كانت ثم فيليب الثاني الى ان يفرضا على المتأخرين من الامراء الحفصيين حمايتهما وان يجعلا الرعية لا تثق بهم ولا تهابهم بل تقف الى جانب القراصنة المغامرين من الاتراك أمثال درغوث Tourgout الذين نشطوا زمانا طويلا منعزلين على السواحل وجنوب افريقية . ولذلك استقبلت الرعية بارتياح مقدم الجيوش العثمانية التي حلت بالقرب من تونس سنة 1574 . أما الدولة الحفصية فلم تعد تثير حماس أي من الرعايا للدفاع عنها بل صارت محل سخط الجميع وعدواتهم . ولقد دامت الدولة الحفصية اذن زمانا طويلا ويعود ذلك الى اسباب عديدة متنوعة . من ذلك ان كبار سلاطين الحفصيين الذين ورثوا عن الموحدين مذهبهم الديني الصارم كانوا أمراء يحيون حياة بسيطة متواضعة تقل فيها مظاهر الابهة وقد ادركوا ما على امير المؤمنين من واجبات : فأقاموا في أغلب الاحيان في قصبة تونس وهي الى الحصن أقرب منها الى القصر الملكي كما ان الجهاز الحكومي والادارة العليا كانا بسيطين ومقتصرين على الحد الادنى . فبعد ان عزل الحفصيون الشيوخ الموحدين عن مهامهم (وهم قواد جمعوا بين السلطتين الدينية والدنيوية وتمكنوا من تكوين طائفة مطلقة النفوذ بعيدة المطامح) عينوا حولهم بعض الوزراء أو كبار الموظفين المخلصين من بين المسلمين المطرودين من الاندلس ومن بين الموالي أو الافارقة المتواضعين غير المغرورين . وكانت أهم المصالح الادارية أو ما كان يسمى بالدواوين تقتصر على الاهتمام بالمراسلات (ديوان ألانشاء) والمالية (ديوان الاشغال) والجيش (ديوان الجند) أما في بقية الجهات فقد كان الوالي (وكان سمي قايدا في نهاية ذلك العصر) يمثل السلطان ويتمتع بنفوذ محدود جدا (جمع الضرائب والمحافظة على الامن) لان المدن والقبائل كانت تسير

شؤونها اليومية العادية عن طريق مؤسسات تقليدية مستقلة عن الدولة (من مجالس متنوعة وشيوخ محليين وقضاة مستقلين عن الدولة أو يكادون . أما سائر المصالح العمومية كالتعليم واسعاف المحتاجين وحتى الاشغال العامة فقد كانت تقوم باعبائها مداخيل المؤسسات الخيرية والاحباس الخ...) . وفي الخلاصة لقد أنشأ الحفصيون مؤسسات بسيطة التكاليف خفيفة العبء تتماشى والوضع الاجتماعي السائد في البلاد الذي سنتحدث عنه بعد حين . وفي نهاية الامر ماهي الوسائل التي مكنت الحفصيين من السيطرة على مجموعة من المناطق المتباينة المتنافرة ذات النزعات الانفصالية الواضحة ؟ تمثل الموارد المادية والجيش كما هو معهود انجع وسائل النفوذ والسيطرة . فما هي أهم خصائص هذين الميدانين في العهد الحفصي ؟

كانت أهم موارد الدولة تتمثل في أملاك السلطان الخاصة والضرائب الموظفة على الاراضي الفلاحية - الخراج - الذي فرضه الموحدون ، ومختلف المكوس الموظفة على الصنائع ونقل البضائع وبيعها وما تؤديه القبائل من ضرائب جملية فرضت عليها . لكن الى جانب هذا النظام الجبائي التقليدي المعهود شجع الحفصيون نشاط القرصنة والتجارة البحرية التي كان يقوم بها في المرافىء الحفصية تجار من المسيحيين واستخلصوا من النشاطين - القرصنة وتجارة الاجانب - ارباحا ذات بال . ومكنت هذه الموارد الخارجية السلطان الحفصي في تونس من ان يكون أقل تبعية لما تدفعه الرعية من ضرائب وان تصبح له على تلك الرعية غلبة مطلقة وستلقى هذه السياسة التي انتهجها الحفصيون أيما نجاح بعد ذلك في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر .

هذا ويبدو ان الحفصيين كانوا من المبتكرين في ميدان الحرب : فالى جانب الكتائب المنتدبة من بين سكان البلاد (جنود قارون أو فرسان من مختلف القبائل) التجأ الحفصيون أكثر فأكثر الى المرتزقة من الاجانب من الاندلسيين والمشارقة والزنوج وفي نهاية الامر المسيحيين (وعدد الاخيرين في بداية القرن السادس عشر 1.500) وكان

هؤلاء الاجانب يمثلون وسيلة للسيطرة والهيمنة لا مثيل لها لاخلاصهم وتعلقهم المطلق بالسلطان وحذقهم فنون الحرب ونجاعتهم في القتال : فقد كان الجنود المسيحيون يملكون أحدث التقنيات بالنسبة لذلك العصر (مثل الاسلحة النارية منذ نهاية القرن الخامس عشر) .
أخذ الحفصيون اذن من خارج البلاد رجالا مخاصين أكفاء لتعمير بلاطهم وتسيير شؤون ادارتهم (من الاندلسيين والموالي) لتكوين النواة الاساسية لجيشهم (من المرتزقة الاجانب) كما انهم جنوا من النشاط البحري موارد اقتصادية جديدة مستقلة عن الوضع الداخلي السياسي والاقتصادي فمكنهم ذلك من السيطرة على المجتمع بصورة ناجعة .
وقد يفسر هذا الوضع جزئيا طول عمر الدولة الحفصية والاستقرار السياسي النسبي الذي عرفه شرق بلاد المغرب .
أمّا ضعف الكيان الحفصي والازمات الطويلة التي عرفتها هذه الدولة واعتمادها حتى على عناصر أجنبية لفرض سيطرتها فهي أمور يفسرها وضع البلاد الاقتصادي في ذلك العصر . فقد بقيت القبائل الرحل او شبه الرحل صاحبة الامر والنهي في المناطق الداخلية وذلك لاسباب معقدة لا تزال غامضة وأقاموا فيها نظاما اجتماعيا وطرق عيش «عتيقة» وانجر عن ذلك تفتت المجتمع داخل البلاد وانقسامه الى مجموعات تتمثل في القبائل المستقلة مثل الهوّاريّين وهم من أصل بربري في شمال البلاد التونسية حيث تكثر الامطار ، والكعوب في سباسب الوسط وأولاد دباب في الجنوب وبني على الذين كانوا يطوفون الساحل عن قرب الخ... أما القبائل والعشائر المستقلة أو شبه المستقلة التي كانت تحتل البلاد فمن الراجح انها كانت تعد بالمئات . وكان رجال تلك القبائل يملكون موارد عيشهم (من قطعان وأراض في بعض الحالات) وكذلك أسلحتهم فكنت تجدهم لذلك لا يشعرون بحاجة ماسة للخضوع تلقائيا لسلطة عليا تمارسها كبريات المدن او تفرضها الدولة لانهم سيدفعون ثمن ذلك باهظا .
ومن ناحية أخرى كانت تلك القبائل تمثل شبه « أمم » تتعايش في

سلم ، فيما بينها ومع عالم المدن من الحضر ومع الدولة وقت الرخا لكنها تتناحر بشدة عند الازمات .

ونحن نعرف نظرية ابن خلدون الشهيرة وقد عاش في النصف الثاني من القرن الرابع عشر . فهو يرى ان العصبية تمكن بعض القبائل من التغلب على غيرها فتضمها اليها حتى يصبح لها من الغلبة والبأس والقهر ما يمكنها من تاسيس دولة . لكن هؤلاء المتغلبين بارتقائهم الى الحكم واستقرارهم في المدن يفقدون لحمتهم وعصبيتهم ويصيبهم الانحلال نتيجة اغراقهم في حياة الترف والنعيم فيؤول بهم الامر الى ان يصبحوا ضحية لقوى جديدة تقوم من داخل البلاد بين القبائل . إن هذه النظرية التي وضعها ابن خلدون بعد مغامرات وتجارب سياسية في المغرب الأوسط والاقصى لا تنطبق تمام الانطباق على افريقية في العهد الحفصي . وقد استطاعت الدولة والحواضر التي كانت تستمد قوتها من خارج البلاد أن تحصر التحركات القبلية في حدود ضيقة وذلك على الاقل في غير فترات الازمات . ومن الأكيد ان الحفصيين تنازلوا عند الشدة عن امتيازات هامة (مثل اقطاع الاراضي أو التنازل عن حقوق ملكية) لفائدة بعض القبائل بل انهم قبلوا سيطرتها على مناطق بعيدة شاسعة (امتد نفوذ اولاد بالليل من قواد الكعوب على منطقة قابس بل انهم بسطوا نفوذهم في زمان ما حتى على منطقة صفاقس) . كما استطاع المتنازعون على الحكم أن يحققوا مطامحهم بفضل ما قدمته لهم بعض القبائل من معونة (مثل ابي اسحاق سنة 1279 وابن أبي عمارة سنة 1283) الا ان هؤلاء المتنازعين كانوا من الحفصيين أو هكذا يدعون لكنهم لم يكونوا البتة اصحاب عصبية او من رجال القبيلة (على عكس بني مرين في فاس وبني زيان في تلمسان) فكانت مملكة تونس تتحالف مع تلك القبائل التي كانت بمثابة قوة لا مناص من الاعتماد عليها عند الضرورة الا ان ذلك التحالف لم يكن يعود على القبائل بالسيادة والملك وذلك لان افريقية تختلف عن بقية بلاد المغرب بأهمية المدن فيها وبكثرة اتصالها بالبحر

وانفتاحها عليه .
وتمثل مدينة تونس أوضح مثال على ذلك . فموقع هذه المدينة عاصمة الحفصيين البعيد المنزوي عن وسط البلاد يوحي في حد ذاته بأكثر من معنى . فلم تكن غاية هذه العاصمة سوى السيطرة اقتصاديا على السهول الواقعة في شمال البلاد التونسية الحالية التي كانت تسقيها أمطار تكفيها نسبيا وتعمرها مجموعات تحيا حياة مستقرة . وكان اهتمامها بالبحر الذي يوفر لها موارد هامة يضاهي بل يفوق اهتمامها بداخل البلاد التي كانت تربطها به علاقات عرضية قائمة على العداء غالبا . ورغم ما يلاحظ في كامل بلاد المغرب من ركود وتدهور شامل فقد تواصل ازدهار مدينة تونس ، اذ شيد الحفصيون اسواقها . واشتد التباين بين تقدم الصناعات ونشاط التجارة وازدهار الثقافة فيها من ناحية وتدهور امر الارياف من ناحية أخرى . كما يلاحظ نفس التباين لكن بأقل حدة في المدن الاخرى مثل سوسة وصفاقس وقابس على السواحل ومدن الجريد محط رحال القوافل تلك المدن التي كانت تبدو وكأنها مراكز نشاط وحركة وسط عالم « عتيق » يغط في سبات عميق . وهكذا قام التباين منذ تلك العهود بين جهات او قطاعات محظوظة نسبيا (الحواضر وسوادها والمناطق التي تمثل حصونا منيعة أو طرقا لا بد من عبورها) وبين المناطق الداخلية التي كتب عليها ان تظل مراعي ممتدة لقطعان القبائل العربية او المستعربة وان تبقى ميدانا لمختلف مظاهر « التخلف » .

اما من الناحية الثقافية فقد تغيرت ملامح الحياة الافريقية أيام الدولة الحفصية وسيبقى أثر ذلك قرونا متوالية فقد تواصلت عملية التعريب وازداد نشاطها في الارياف بفضل انتشار القبائل الهلالية واسهامها في عملية الامتزاج بين الاجناس فانحصرت اللغة البربرية في بعض المناطق الجبلية النائية (الجبال الواقعة في الجنوب الشرقي والمناطق الوعرة شمال وادي مجردة وجبل وسلات بالوسط) أو في جزيرة جربة . وتميزت افريقية منذ ذلك العهد عن بقية بلاد المغرب بما تحقق فيها

من انسجام نسبي في اللغة والثقافة .

كما نلاحظ نفس الظاهرة من الناحية الدينية ، فقد حقق المجتمع تقدما كبيرا نحو الوحدة بفضل انتصار المذهب المالكي أكثر مذاهب السنة الاربعة شدة وتصلبا.فقد قدم رجال امثال ابن عرفة - وهو بربري من الجنوب التونسي تعلم بمدينة تونس وأصبح منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر من أكبر رجال الدين فيها - أعمالا جليلة لاعلاء كلمة المذهب المالكي واخرجوه في شكل مبسط في متناول أكبر عدد من الناس (ولنذكر ما لقيته المختصرات التي تخص أصول المذهب المالكي والقوانين الدينية من شهرة ونجاح) واستطاعوا خاصة أن يلائموا بين المالكية والبيئة الافريقية عن طريق اخضاع الاولى لمقتضيات العرف والعادة وما يفرضه الصالح العام والضرورة . وانتشر المذهب المالكي في هذه الصيغة الجديدة وبلغ حتى أبعد الواحات جنوب قسنطينة وكانت تعلمه مدارس عديدة توزعت في كل المراكز التي لها بعض الاهمية .

لكن ما حققه هذا المذهب من انتشار في القرن الخامس عشر خاصة لم تصحبه جهود متواصلة للتعمق فيه ولتطويره تطويرا يناسب مجرى التاريخ . فقد اعتبر الامام ابن عرفة المتوفى سنة 1401 آخر كبار المجددين في هذا الميدان وأعلن علماء بلاد المغرب في القرن الخامس عشر غلق بـاب الاجتهاد . فظلت علوم الدين - وكانت تمثل الثقافة - تعتمد على الاعادة والاجترار واضحت علوما تقليدية باتم معنى الكلمة. فقد جفت مواردها وتحجرت على غرار ما أصاب سائر ميادين الحياة الاجتماعية وعجزت عن الاستجابة لمتطلبات الجماهير العميقة . ورافق ذلك ميل العلماء الى الانطواء داخل فرق متوارثة منغلقة على نفسها تزداد ابتعادا عن المجموعة يوما بعد يوم . فبحث الناس عن مرضاة الله في سبل أخرى أي في الزوايا .

لقيت الحركة الصوفية وظاهرة الزوايا في نهاية « القرون الوسطى » ازدهارا مدهشا في بلاد المغرب . وكانت هذه الظاهرة مزدوجة المصدر

ـد أخذت عن التصوف الشرقي الذي نشره في بلاد المغرب اقطاب
ـذاذ امثال سيدي ابي مدين المتوفى في تلمسان في نهاية القرن الثاني
ـشر ، ومنهم سيدي ابو سعيد ذلك الاديب المثقف البارع المتوفى
ـنة 1231 الذي شيدت حول ضريحه ضاحية شهيرة فوق هضبة
ـرفة على البحر شمال مدينة تونس ومنهم أيضا سيدي أبو الحسن
ـاذلي صاحب الاحوال الصوفية والسهرات المكرسة للاذكار
لاوراد و « الحضارات » وهو الذي يعتبر أول من أدخل
ـهوة الى بلاد المغرب ومن الرجال الاوائل الذين نظموا
ـحركة الشعبية للزوايا وقد توفي بالمشرق سنة 1258 وأصبح
ـريحه على أبواب تونس جنوبا مركزا من انشط مراكز الفرق الصوفية
ـ افريقية وظل كذلك حتى زمن غير بعيد وربما الى اليوم . وكان
ـؤلاء الاعلام ينادون بتفضيل « الحقيقة » النابعة عن الوجدان
وهدفها الاسمى الاتحاد بالذات الالهية) على علوم الدين والشريعة
ـتصلة بالعقل .
ـا المصدر الثاني للحركة الصوفية فهو مصدر شعبي محلي اذ وافقت
ـذه الحركة ما تصبو اليه العامة اي دين بسيط من حيث المعتقد
ـه حيوية وحرارة من حيث الطقوس. وجدت في ممثليه - أي الاولياء
ـصالحين او المرابطين - شفعاء عند الله وحماة ينجدونهم عند الشدة .
كانت الحاجة ملحة الى التسلية والنجدة في عصر اتسم بالقساوة
حفل بالكوارث .
ـد توالت هجومات المسيحيين على السواحل وتفاقم خطرها في
ـحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط بأكمله كما انعدم الامن
ـداخلي من جراء تحرر القبائل العربية (الهلالية) وتمردها على اعدائها
ـوراثيين من اهل المدن ورجال الحكم المركزي وتعددت الثورات
لآفات الكبرى مثل وباء الطاعون الاكبر الذي اجتاح العالم بأسره
ـنه البلاد التونسية ما بين 1348 و 1350 م . ثم ان تفتت المجتمع
ـهاون السلط المركزية بشؤون دواخل البلاد وما ادخله « علماء الدين »
ـلى الاسلام من جدب وتحجر وابتعاد عن واقع الحياة كل هذه الامور

مجتمعة ساهمت في ذيوع صيت اولياء محليين واصبحت زواي
واضرحتهم مراكز يلتف حولها الناس تطعمهم اذا جاعوا وتحميهم
جزعوا ويتعبدون فيها عبادة حسية نابضة اخاذة كلها دفء وحرا
وكلما اقتربنا من نهاية « القرون الوسطى » ازداد الناس تقربا من الا
وعظم اقبالهم على الزوايا وازداد التنوية شيئا فشيئا ببركة الاولياء وكراما
وباختصار ازداد التنويه بدور المنقذ المسعف وخصاله وسط مجتمع
حاجة ماسة اليه . ونجد كذلك تعلق الناس بالخوارق وبكل ما
عجيب : فطفت المعتقدات الجاهلية وخرافاتها من جديد وتب
حركة الزوايا لفائدتها فآل الاعتقاد في « حبيب الله » عبادة و
وصار مصدرا للشرك ولم يسع رجال الدين مرغمين على ذلك او منقاد
اليه الا قبول تلك البدع الغريبة النابعة من أعماق الماضي ومن ر
الشعب . وكان رجال الدولة من ناحيتهم ـ لاسباب سياسية بين
ينوهون بالزوايا ويغدقون عليها العطايا حتى عندما يقف هؤلاء الرج
الملهمون ـ باعتبارهم حماة الضعفاء والناطقين بلسان حالهم ـ علنا
وجه بعض تصرفات الامير . فقد حمى السلطان عثمان سيدي
عروس « مجنون الله » ذلك الذي ارتكب الكبائر علانية وازدر
العادات لكن العامة كانت تعبده في تونس وتتقرب اليه فنظم
السلطان اثر وفاته سنة 1463 موكب جنازة عظيما .
فظاهرة عبادة الاولياء والصالحين معتقد قوامه الصخب والحركية ا
جانب كونه دينا يعيشه الجمهور ويحياه . أما اسلام العلماء فقد غدا دي
النخبة المثقفة المحظوظة وأخذ يبتعد شيئا فشيئا عن واقع الحياة ف
القرن الخامس عشر كما أسلفنا ذلك .
من الغريب ان يظهر في عصر الركود والاقفار العقلي هذا أثقب المفكري
ذهنا في التاريخ الإسلامي على الاطلاق واعمقهم تفكيرا : عب
الرحمان بن خلدون (1332 ـ 1406) وهو من اسرة أندلسية نازح
ولد بتونس وتلقى بها دراسة أولى ثم اشتغل وهو حديث
السن كاتبا بالديوان . وغادر وطنه وهو لم يتجاوز العشرين وانطلق باح

عن المغامرة السياسية في مختلف ممالك بلاد المغرب الاسلامي من بجاية حتى غرناطة . وظل طيلة ربع قرن يجمع التجارب السياسية على اختلافها (من اعلى المناصب الى السجن) مع المطالعة والتفكير فيما حصل لديه من تجارب وما عرفه من اوضاع مختلفة .

وهكذا توفرت لديه المادة والمؤهلات الفكرية التي ستنبثق عنها مقدمته لتاريخ البشرية وقد حررها فيما بين سنة 1375 وسنة 1378 معتزلا في قلعة بني سلامة (في مقاطعة وهران الحالية) ولم تلبث عودته الى تونس ان ألبت عليه الاعداء والحاقدين عليه لافكاره الجريئة ولصلابة طبعه وكبريائه . فقصد من جديد طريق العزلة متجها هذه المرة نحو المشرق وانتهى به المطاف في القاهرة حيث قضى بقية حياته مدرسا وقاضيا . على ان تلك الفترة من حياته لم تكن خالية من الاضطراب والتألق معا .

لقد عرض ابن خلدون في مقدمته آراءه حول تطور المجتمعات البشرية عرضا منطقيا محكما يقوم على منهج تأليفي معجز . فقد حلل بالخصوص الاسس المادية لوجودها (كل ثروة انما هي ثمرة العمل البشري ، وتقسيم العمل من شأنه ان يضاعف من قيمة المنتوج النهائي الخ ...) كما قام بحصر مختلف الانشطة البشرية مراعيا في ذلك اختلافها باعتبار المعطيات الجغرافية (مثل تأثير المناخ) او الاجتماعية والثقافية (من بساطة طرق العيش في المجتمعات البدائية الى تعقد الانظمة وتشعبها في المدينة « المتحضرة ») . كما انه اهتم اهتماما بالغا بتوضيح ظاهرة الملك وتفسيرها : فالملك في بداية الامر هو مجرد العصبية داخل مجموعات صغرى وخاصة منها القبلية ثم انه ينمو ويتطوّر عن طريق الغزو والتوسع ليصبح في النهاية مملكة تقوم على الغلبة والقوة وتستقر داخل مدينة . وعندئذ تضمحل اللحمة القائمة على العصبية وتنحل الطبائع بتأثير الاغراق في حياة البذخ وترف الحضارة : لذلك كان أهل المدن معرضين بصورة حتمية لغزاة جدد يتولدون من مناطق القبائل الداخلية أو من خارج المجتمع « المتحضر » . فأبرز

ابن خلدون بهذه الصورة قوانين التطور السياسي في عصره اي قوانين تطور الدول التي ظهرت في سباسب المشرق (وقد كان معاصرا لتيمورلنك كما تمكن من ملاقاته) أو في الامارات التي اقامتها قبائل رحل في المغرب الاقصى . كما حاول هذا الرجل ان يفسر التدهور المحتوم الذي عرفته الحضارات الاسلامية الكبرى بعد ان بلغت أقصى درجات الكمال : في الاندلس وقد أخذ المسيحيون في استرجاعها او في المشرق وقد زحفت عليه قبائل الاتراك والتتار .

لقد كان ابن خلدون بلا منازع رائدا في ميدان العلوم الانسانية لكنه لم يلق في بلاد الاسلام من يأخذ عنه عمله ويواصله وكان في ذلك الاطار بمثابة من يطلق النغم الساحر الاخير في عالم يسير نحو السبات .

وستدخل البلاد التونسية مرحلة أزمة شديدة في أواخر القرن الخامس عشر وأثناء قسم هام من القرن السادس عشر : فما هي العوامل الجديدة التي ظهرت فأخلت بما عرفته الدولة الحفصية، من توازن دام قرونا عديدة وأفسحت بذلك المجال لملوك آخرين وعهد جديد .

يبدو ان هذه التغيرات قد فرضها في قسم كبير منها الوضع الدولي وهو أمر يتجاوز اطار البلاد التونسية وحدها كل التجاوز. فمن بين النتائج التي انجرّت عن الاكتشافات البحرية العظمى وعن الحيوية والنشاط الذين شهدتهما أروبا في عصر النهضة نذكر فقدان حوض البحر الابيض المتوسط مكانته بعد ان تحولت عنه الطرقات التجارية الكبرى ومسالك العملة والمعادن الثمينة . فضعف بذلك اقتصاد المدن المركز على استخدام النفوذ وتأزمت مجتمعاتها وحرمت الدولة الحفصية من الموارد الخارجية التي كانت تحصل عليها من التجارة (او من ربيبتها القرصنة) وأعوزتها مؤازرة المجتمعات الحضرية التي كانت حليفها الطبيعي وركيزتها الاساسية وبذلك انحلت هذه الدولة بسرعة منذ ان فقدت القدرة على ردع القوى الانفصالية المتمثلة في قبائل المناطق الداخلية : فقد انحصر نفوذ السلطان الحسن حوالي سنة 1530 في الشمال الغربي من البلاد التونسية الحالية وفي بعض المدن النائية مثل

سوسة والقيروان وعنابة . أما في بقية الجهات فقد استعاد سكان البلاد وخاصة القبائل استقلالهم وحريتهم .
واحتل الاتراك ثم الاسبان على التوالي تونس سنة 1534 وسنة 1535. وكانت البلاد التونسية في حد ذاتها لا تهمهم بقدر ما كان يهمهم موقعها الاستراتيجي المشرف على مضيق صقلية ذلك الممر الرابط بين حوضي البحر الابيض المتوسط ـ الشرقي منه وهو ميدان هيمنة السلطان العثماني والغربي حيث يصول ملك اسبانيا المسيحي فبعد أن اخضع شارل كانت Charles Quint تونس لنفوذه سنة 1535 أمر بتشييد حصن منيع عظيم بحلق الوادي (وهو ميناء العاصمة الاساسية) سيضمن بفضله بقاء الجيوش الاسبانية بالتراب الافريقي ما يقرب من اربعين سنة .
وبعد أن خلع الاتراك السلطان الحفصي مولاي الحسن عن العرش اعاد شارل كانت تنصيبه لكن بعد ان ادخله تحت حمايته وجعله تابعا له . وكان نفوذه ضيقا محدودا يستوى في ذلك بضيق حرية تصرفاته بين عملاقي البحر الابيض المتوسط الذين صارا يتنازعان بلاده في عقر داره . ولم يكن ابنه مولاي أحمد الذي خلع اباه وخلفه سنة 1541 اسعد حظا منه .
وكان داخل البلاد كما أسلفنا خاضعا لنفوذ القبائل . فقد استطاعت قبيلة الشابيين (وهي قبيلة مرابطين) أن تستولي على القيروان حوالي سنة 1537 وحاولت أن تبسط نفوذها على كامل مناطق الوسط طيلة ما يقارب العشرين سنة . لكن عهد المؤسسات السياسية القبلية المستقلة قد ولى وانقضى فلم يستطع الشابيون البقاء على رأس امارتهم الواهنة الا باستغلال ظروف التناحر بين الحفصيين والاسبان والاتراك قبل أن يقضي عليها هؤلاء أي الاتراك قضاء نهائيا سنة 1557 .
وكانت السواحل مسرحا للصراع الاسباني التركي الذي شهد تقلبات عديدة . وكان يقود المعركة من الجانب التركي قراصنة من بلاد الشرق نذكر من بينهم الرايس درغوث الشهير بدهائه وبانتصاراته العديدة على

المسيحيين . وقد استطاع أن يستقر في طرابلس بعيد منتصف ذلك القرن وان يستولي على القطر التونسي انطلاقا من الجنوب : قفصة (سنة 1553) والقيروان (سنة 1557) ... وفي 1569 دخلت الجيوش التركية ـ يقودها والي الجزائر ـ تونس وطرد منها السلطان الحفصي . لكن الاسبان اغتنموا الوضعية الناجمة عن انتصار ليبانت Lépante على الاسطول العثماني فاستولوا على تونس من جديد بقيادة شقيق ملك اسبانيا دان جوان النمساوي Don Juan d'Autriche في صائفة 1573 واقاموا فيها حكما مشتركا اسبانيا ـ حفصيا . ودامت تلك الوضعية ـ الشاذة في نظر المسلمين في ذلك العصر ـ عشرة أشهر حتى قدوم الاسطول العثماني بقيادة سنان باشا الذي استرجع تونس وكذلك حلق الوادي فوضع بذلك حدا لحضور الاسبان بتونس وللدولة الحفصية بافريقية (سبتمبر 1574) وكانت كذلك نهاية « العصور الوسطى » في تلك الاصقاع .

العصور الحديثة
(1574 ـ 1815 م)

يتسم العصر الحديث في اوروبا بانه كان عصر ظهور الاسلحة النارية وبناء الصروح السياسية الخاضعة لنظام مركزي كما يتسم بانه عصر الراسمالية التجارية فالصناعية في طورها الاول
وقد قابلت تعاظم قوى العالم المسيحي المادية والسياسية وحملته العسكرية فالتجارية منذ بداية القرن السادس عشر، ظروف جديدة في بلدان المغرب عامة وتونس خاصة .

فقد كان امام هذه البلدان اما قبول التكيف مع مقتضيات العصر او خطر التفسخ والانحلال السياسي وحتى الثقافي (وقد كان ذلك الخطر سيفا مسلولا على بلدان المغرب فترة طويلة من القرن السادس عشر إبّان الهجمات الاسبانية المظفّرة) .

اما اسباب النجاة، وكانت تتمثل في التكيف مع ظروف عسكرية وسياسية واقتصادية جديدة فقد كان مأتاها الخارج ، فلقدسبق ان راينا فعلا كيف ان الاتراك العثمانيين حلوا انذاك بتونس والقوا بالاسبانيين في البحر وكيف نظموا هجماتهم حسب طريقة ظهرت جدواها في بلاد المشرق.

ففيم تمثل هذا التنظيم ؟ وفي صالح من كان ؟ وكيف تطور عبر العصور هو والمجتمع الذي عليه كان يطبق ؟ واخيرا ما هي النتائج التي

افضى اليها هذا التطور في نهاية هذه المرحلة التي ندرسها اي في العقود الاخيرة من القرن السادس عشر وبداية الذي يليه .

I ـ النظام التركي بالبلاد التونسية والمستفيدون منه
(أواخر القرن السادس عشر)

اصبحت البلاد التونسية بعدما احتلها الاتراك سنة **1574** بمثابة ولاية عثمانية يحكمها باشا يوليه عليها الخليفة من اسطمبول لمدة معينة. والملاحظ ان هذه المقاطعة الجديدة كانت تتميز اداريا عن جارتيها ولايتي الجزائر وطرابلس وانها كانت منذ ذلك الحين مؤهلة لان تسلك سبيلها الخاص في التطور اي ان تتميز كيانا سياسيّا تونسيـــا . اما في ذلك الحين ، فان المقاطعة كانت تسمى رسميا **وجقا** او **سنجقا** وهو ما يؤكد طابعها العسكري : فقد انتصب بتونس وبصفة مستمرة عسكر من الانكشاريين الاتراك يعد بين ثلاثة آلاف واربعة الاف رجل وكان ذلك العسكر عمود النظام وبالتالي المستفيد الرئيسي منه اذ كانت تقع على عاتقه مهمة اساسية تتمثل في حماية البلد من كل عدوان خارجي (وكانت **الاوجاق المغربية** حصون الاسلام تتصدى لضربات المسيحية المجاهدة) كما تتمثل في فرض النظام التركي على فسيفساء من الشعوب هي في معظمها غير راضية (كالقبائل مثلا) ولهذا فان المجلس الاعلى لهذا العسكر كان يسمى **الديوان** ـ ويتكون من ضباط سامين من **اغوات وبولكباشية** ـ كان له شان عظيم في حياة المقاطعة وكان سلطانه يعدل سلطة الباشا حاكم البلاد بل انه سيظهر عليه وينتصر عمّا قريب .
اما الشغل الشاغل للمسؤولين عن المقاطعة فكان الحصول على الموارد الضرورية لحاجيات الدفاع وتسديد مرتبات الجند وممثلي السلطة التركية المستقرين بالبلاد ، وكانت تلك الموارد تتوفر أوّلا من الضرائب الفلاحية فكان الباي يخرج على راس عسكر نظامي يدعى **المحلة** ليستخلصها من الرعايا بالارياف ، وذلك في مواسم معلومة .

اما في الحواضر فقد فرضت مكوس متنوعة على صنع البضائع وتنقلها واستهلاكهاوكانت تلك المكوس في العادة «لزمـة» شانها في ذلك شان عدد كبير من الوظائف العمومية ونصف العمومية .

واخيرا ، كان الجهاد البحري ، أو القرصنة ـ تدعمه السلطة الجديدة غداة الغزو ، ويمارسه مشارقة او مسيحيون اسلموا ـ يوفر مداخيل ذات بال للخزينة العامة وللاتراك الذين كانوا يقومون به .

وخارج هذه القطاعات المتصلة من قريب او بعيد بحضور الغزاة الاتراك كان النظام الاجتماعي المحلي لا يزال يخضع لمؤسساته هو وخاصة منها ذات الطابع الديني التي صاغته وصهرته في بوتقة واحدة منذ قرون عديدة ، اي المؤسسات التي تنتمي الى الاسلام الرسمي اسلام الثقافة والمدينة (اي القضاء والتعليم والعبادة والاعمال الخيرية) او تلك التي تنتمي الى اسلام عامة الناس (اي ضرائح الاولياء الصالحين وما يصحبها من شتى التظاهرات) .

اما في مستوى الحي والقرية او العشيرة فان القضايا اليومية كان يتولى امرها « **شيخ** » يختاره كبار القوم من بين صفوفهم .

وكان الغزاة يكتفون بمراقبة عمليات التسمية في المناصب او احيانا باسناد لزمة الوظائف . كما كان لهم ايضا ان ينصبوا شخصية تركية على راس مصلحة عظيمة الشان ، مثل ذلك المسمى القاضي الافاندي (اي القاضي الكبير) والذي اطال في نعته الوصاف لانه كان اقرب الى الجندي الفظّ منه الى العالم الفقيه وكان يرسل من قبل سلطان اسطمبول ليتولى شؤون القضاء .

كان النظام الذي اقره الغزاة في اواخر القرن السادس عشر وبداية القرن الموالي لصالح طائفة الاتراك لاشتمالها على شخصيات سامية مبعوثة من قبل سلطان اسطمبول لفترة معينة وعلى انكشارية ينتمون الى طبقة الفقراء اصيلي بلاد الاناضول الذين اثروا بتونس وتأصّلوا بها وعلى من اسلم من المسيحيين وكانوا يعتبرون « اتراكا » حالما يدخلون البلاد وعلى ابناء هؤلاء الاتراك ويسمّون **الكوارغلية** اي الذين يولدون في

البلاد من ام تونسية فيتمتعون بما يتمتع به آباؤهم من الامتيازات .
وقد كان لهم جميعا وبلا استثناء حق التمتع براتب قارّ منذ الولادة علاوة على امتيازات اخرى عينا او نقدا يحصلون عليها بمناسبة ممارستهم خطة من الخطط او قيامهم بخدمة ما . وكانوا جميعا يعتبرون انفسهم من طينة اسمى وكثيرا ما كانوا يقابلون الرعايا سكان البلاد الاصليين بالاحتقار والتعدي على ارزاقهم : فشخصية بابا عصمان مثلا ذلك التركي الفظّ الذي يحسن الضرب بالسيف والاطاحة بالرؤوس ولكن يخدعه « البلدي » الظريف بكل سهولة ، لا تزال حية في فولكلور مدينة تونس .
الا ان النظام سرعان ما دارى اعيان البلاد وجعل لهم مكانا في صلبه. من ذلك « رجال الدين » القادمون من كل الافاق والذين كانوا يضمنون صهر المجتمع في كيان واحد وينهضون بوظائف تعتبر حيوية في ذلك العصر . ومن ذلك المثقفون الذين عمروا المصالح الادارية شيئا فشيئا (ذلك ان الفاتحين كانوا في كثير من الاحيان اميين وقليلي الدراية بلغة اهل البلاد).ومن ذلك التّجار أو الاثرياء الذين كانوا **يستلزمون** الوظائف المختلفة . ومن ذلك عائلات الاعيان العريقة وكانت تضمن للاسياد الجدد طاعة الاهالي . ومن ذلك المنجمون والمغامرون وغيرهم من الوسطاء ممن يحتاج اليهم كل نظام يقوم على الغلبـــة .
واذا اضفنا الى هذا ، المصاهرات التي كانت تعقد والاشتراك في المصلحة فهمنا كيف ان نظام الغزاة سيتفسخ تدريجيا وذلك منذ النصف الاول من القرن السابع عشر .

II ـ « ثورات » تونس في القرن السابع عشر -م-:

في الفترة الممتدة من اواخر القرن السادس عشر الى بداية القرن الثامن عشر حصلت بتونس ، المقاطعة العثمانية رسميا ، عديد من التغيرات

السياسية السلمية منها والدامية وهي التي اطلق عليها اسم « ثورات تونس » ففيم تتمثل هذه التغيرات ؟ وما هو مغزاها العام ؟ وهل يمكننا ان نجد لها تفسيرا في التحولات المصاحبة التي شهدها المجتمع وشهدتها البلاد ؟ .

1) عهد سيطرة الدايات

(أواخر القرن السادس عشر ـ منتصف القرن السابع عشر)

كان الدايات ضباطا من اصل تركي ، ثم انهم استولوا على الحكم بفضل عسكر الانكشارية او بفضل بعض كتله فقد كانوا في الاصل قوادا عاليين يعينهم الاتراك المستقرون بتونس على عين المكان ودون ادنى تدخل من الحاضرة اسطمبول بل وكان الدايات يفرضون سلطتهم حتى على الممثلين الرسميين للحكم العثماني بتونس مثل الباشا .

وتوصل الدايات الى الحكم بعد ثورة 1591 ، فقد اغتنم عامة الجند الازمة السياسية والمالية التي كانت تتخبط فيها اسطمبول كما اغتنموا ظروف الغضب المتفشي بين الرعايا لقتل رؤساء الميليشيا التركية المحتكرين لعضوية « الديوان » وبالتالي للنفوذ الحقيقي بتونس وعوّضوهم داخل ذلك « الديوان » بضباطهم الصغار المباشرين لهم . وكان يطلق عليهم لقب « داي » ، فصار كافة الجند الاتراك ممثلين تمثيلا مباشرا في اهم دولاب سياسي انذاك ، وقد تم ذلك في منتصف شهر اكتوبر 1591 .

ثم اتضح ان ذلك النظام القائم على الديموقراطية العسكرية المباشرة غير قابل للتطبيق . فانتهى الامر باحد الدايات وهو عثمان داي الى ان قضى على منافسيه واستأثر بكل السلط وكان ذلك منه سنة 1598 ففتح عهدا جديدا هو عهد سيطرة الدايات والذي سيستمر الى حوالي منتصف القرن السابع عشر .

ويفسر نجاح هذا الحكم الفردي اولا ما كان يتمتع به الدايات من

شخصية قوية اذ كانوا ضباطا اشداء تخرجوا من صفوف الجندية ، مثل عثمان داي (1598 ـ 1610) وكان يفرض نفسه على الجميع بفضل ما كان يتمتع به من عنفوان و « بركة » وكانوا قراصنة شجعانا مثل أسطا مراد (1637 ـ 1640) وكان مملوكا جنوي الاصل تعاطى القرصنة فمهر فيها وغنم الغنائم العديدة من مراكب واسرى مسيحيين بيع منهم الآلاف في اسواق الحاضرة واحتفل بانتصاراته احتفالات فخمة على الطريقة الرومانية كما ان الدايات كانوا ايضا سياسيين دهاة مثل يوسف داي (1610 ـ 1637) او احمد خوجه (1640 ـ 1647) ولكن الدايات حتى في هاتين الحالتين الاخيرتين (اي قراصنة وسياسيين) بقوا بالدرجة الاولى ، قوادا عسكريين يختارهم العسكر وينصبونهم في قلعة القصبة تنصيبا له دلالته الخاصة وهي بالطبع رمز الحكم العسكري .

وقد فرض الدايات انفسهم على غير المنضبطين من العساكر المشرقية او المستسلمين بالعقاب اعداما او باجراءات الردع العنيفة ، واعادوا الى صفوف العسكر ذلك الانضباط الشديد الذي كان مصدر قوتهم في السابق والذي مكنهم من الفوز والظفر كما ضمنوا لهم بصفة خاصة موارد للرزق منتظمة بفضل تنظيم احسن لشؤون البلاد وبفضل تطور مواردها .

كما انهم سلكوا سياسة حازمة وعملوا على حماية الاشخاص واعيان اهل المدن (البلدية) وحماية ممتلكاتهم بزجرهم تعديات الجند وشططهم ، وبتعقبهم « اهل الفساد » تعقّبا لا هوادة فيه وبتوسيعهم شيئا فشيئا للمناطق الآمنة حول المدن وبانتصابهم في بعض الحالات مدافعين عن الرعايا ضد ما يرتكبه ممثلو اسطمبول في حقهم من تعديات بغيضة . وباختصار ، كان للدايات اكثر من فضل على الاعيان من اهالي المدن فدخل هؤلاء شيئا فشيئا في طاعتهم من مستشارين وكتاب او موالي مثل علي ثابت ، ذلك الذي أصبح العقل المدبر والساعد الايمن للداي يوسف ، ومن لزّامين وكانوا الادوات الضرورية لاستغلال البلاد وتعبئة مواردها . ومن ناحية اخرى، اكبر رجال

الدين اي اكبار حرص الدايات على اقرار نظام المدينة الاسلامية وسننها من جديد فآزروهم مؤازرة زادها قيمة ان سلطان الدايات كان سلطان الامر الواقع اذ كانت تعوزه الاسس الشرعية الثابتة (بصرف النظر عن ولائهم للسلطان العثماني وقد اضعفه الاستقلال الفعلي الذي حصل عليه اولو الامر بتونس) .

لقد شاهدنا اذن كيف ارتقى الاعيان من الاهالي الحضريين منذ النصف الاول من القرن السابع عشر . افلا تكون هذه الظاهرة دليلا على تحولات اعمق شهدتها البلاد التونسية او بعض قطاعاتها في تلك الفتـرة ؟ .

2) تطور البلاد التونسية في القرن السابع عشر -م-

ان تاريخ المغرب في العصور الحديثة لا يعدو ان يكون - في نظر بعضهم - تاريخ القرصنة والقراصنة خارج تلك الممالك وتاريخ الطغيان التركي (او الشريفي) في الداخل. وقد لا نحتاج الى ان نشير الى ما في هذه النظرة من السذاجة والخلفيات الايديولوجية .

لقد ازدهرت القرصنة او « الجهاد البحري » حقا في ذلك العصر فصارت تدفع الى سوق مدينة تونس بالاف من الاسرى المسيحيين (وكانت نهاية المطاف بالنسبة لاغلبهم ان يفديهم اهلهم بالمال) وبكميات ضخمة من السلع المغنومة التي كانت تمون تجارة رابحة في تونس وحتى في بعض المراكز الاقتصادية الاوروبية مثل « القرنة » Livourne وتوفر الارباح لقطاع عريض ممن يتعاطاها من الطبقة الحاكمة او لمن يمولهـــا .

وعلى العموم ، كان « الجهاد البحري » منشطا من الطراز الاول بالنسبة للاقتصاد النقدي التونسي باجمعه وكذلك بالنسبة للقطاعات الاجتماعية التي كانت تعيش منه بما كان يجر الى البلاد من عملة جديدة.وليس من قبيل الصدفة ان صار الريال الاسباني عملة التبادل بين قطاعات هامة من المجتمع التونسي حوالي 1630 في وقت كانت

الغزوات قد بلغت اوجها ، محوّلة نحو تونس (والجزائر) قسما متواضعا والحق يقال ، من مدخرات الفضة الاسبانية. ومن نتائجه السياسية انه لما كان يعتبر جهادا ، كان يلقى شعبية لا شك فيها فانه كان يسهم في تدعيم سيطرة الاتراك على البلاد باضفاء صفة الشرعية عليها .

ولنضف ملاحظات اخرى في شان هذا النشاط المتمثل في الغزوات البحرية وكان يقدم الى عهد غير بعيد على انه شذوذ تميز به « برابرة » شمال افريقيا Les Barbaresques وكان اصحاب هذه النظرية عادة ما يسوون بين القرصنة ولصوصية البحر (1) ولكن الغزوات كانت تتميز عنها في الحقيقة تميز الحرب عن قطع الطريق .

ومهما يكن من امر فان الضرر الذي الحقته القرصنة ببلدان حوض البحر الابيض المتوسط اقل بكثير مما نتج عن حرب الثلاثين عاما التي كانت تدور في اروبا الوسطى في ذلك العصر . ثم ان القرصنة لم تكن مقصورة على الممالك الاسلامية المغربية بل كانت كل البلدان العظمى في ذلك العصر وبدون استثناء تمارسها ولنذكر بصفة خاصة ان القرصنة كانت اهم نشاط قامت به منظمة « فرسان مالطة » الدولية الرسمية.

واخيرا ان الذين مارسوا ذلك النشاط كانوا فقط من « الاتراك » المشرقيين او من المسيحيين الذين اسلموا وان الغزو لم يكن شغل السكان المحليين الا بطريقة غير مباشرة .

وفضلا عن ذلك لا ينبغي ان تنسينا اعمال القرصنة المعاهدات التجارية التي ابرمتها تونس منذ بداية القرن السابع عشر مع عديد من الدول الاوروبية او مع تجارها : من ذلك ما تم مع ملك فرنسا الذي حمل عثمان على الاعتراف بصلوحية « التنازلات » الفرنسية التركية في

---

1) كانت عبارة القرصنة تستعمل في الوثائق الرسمية لشمال افريقيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر بمعنى حرب بحرية منظمة وشرعية اي نفس الحرب التي كانت تمارسها البلدان الاوروبية وتطلق عليها اسم « كورس » Course مميزة اياها عن لصوصية البحر Piraterie ولم تتخذ عبارة القرصنة معناها السلبي الا في القرن التاسع عشر لما تخلت اوروبا نهائيا عن هذا النشاط وصارت تغير على بلدان شمال افريقيا التي كانت تروم غزوها .

« الولاية » التونسية مع القرانة Les Livournais والجنوبيين وغيرهم
ثم ان هذه التجارة التي قامت في البداية على تسويق غنائم الغزوات البحرية امتدت شيئا فشيئا لتشمل محاصيل البلاد الفلاحية ، ومن المحتمل جدا انه كانت وراء تلك الحملات العسكرية التي قادها المراديون منذ 1628 ـ 1629 ضد القبائل داخل البلاد دوافع تجارية اي ان هؤلاء البايات (ومن كانت له مصالح « تجارية » من الطبقة الحاكمة بتونس) راموا التحكم في الارياف قصد مراقبة انتاجها من قموح وزيوت وجلود وشمع وغيرها حتى يتسنى لهم احتكار فواضل ذلك الانتاج وتسويقه ويجوز لنا من هذه الزاوية ان نعتبر السياسة المرادية امتدادا لتوسع راس المال التجاري الاوروبي الذي وجد بتونس مناخا ملائما وحلفاء من بين اعضاء الطبقة الحاكمة وبالطبع من بين التجار الكبار وارباب الصنائع الرفيعة المرتبطين بالتجارة الخارجية. ونحن نفسر على هذا النحو ظهور المراديين وتفوقهم على القطاع العسكري التركي في الطبقة الحاكمة ـ ذلك القطاع الذي كان استمد جانبا من قوته من استغلال نشاط القرصنة .

وفعلا ، فان كثيرا من المؤشرات تسمح لنا ان نستنتج عودة حركة حقيقية الى المبادلات داخل البلاد(من ذلك بناء الاسواق والمحلات التجارية ومد الجسور وغيرها) والى تطور الصناعة اليدوية وخاصة صناعة الشاشية الشهيرة وكانت تسوق على نطاق واسع الى المشرق الاسلامي بأجمعه. وقد ازدهرت تلك الصناعة في النصف الاول من القرن السابع عشر بفضل الاندلسيين او الموريسك الذين طردوا من اسبانيا سنة 1609 فاستقبلت الساحل « التونسية » عشرات الالاف منهم .

وقد كان لهؤلاء الاندلسيين ايضا دورهم في تعمير بعض المناطق واحيائها اذ غرسوها زيتونا او جعلوا منها اراضي سقوية : من ذلك اراضي وادي مجردة السفلى واسفل الوطن القبلي وسواحل شمال شرق البلاد (من قلعة الاندلس الى بنزرت) .

وقد احتفظت اماكن عديدة اسسوها او اعادوا ترميمها بطابعها

الاندلسي الخاص الى يومنا هذا مثل تستور او سليمان .
ان هذا النشاط المتعدد الذي قام به الاندلسيون هو وحده الذي لفت انتباه الملاحظين فجعلهم يستهينون بالدور الذي قام به الاهالي ويستهينون بمساهمتهم في النهوض الاقتصادي في القرن السابع عشر . فإذا كانت مدينة تونس تبدو في مظهر مدينة تجارية في الستينات من هذا القرن ، وكانت صناعات النسيج نشطة بالعاصمة وسوسة والقيروان وفي جهات الجريد فان ذلك لم يكن قطعا من عمل الوافدين الاندلسين وحدهم . واذا عمرت الزيتونة من جديد اطراف الساحل فذلك من عمل سكان الساحل فقط ، وان اعيد احياء الهناشر فان ذلك من عمل فلاّحي تلك الجهات .
والى جانب هذه النهضة الاقتصادية انتعشت الحياة الثقافية وخرجت شيئا فشيئا من حالة الجمود والسبات التي اردتها فيها ازمة القرن السادس عشر فنشطت الدراسات الدينية بتونس وبمختلف جهات البلاد كالقيروان وسوسه وصفاقس وكثر عدد « العلماء » من مالكية محليين او من منتمين الى المذهب الحنفي ذلك المذهب الذي دخل افريقية مع الاتراك ثم سهر عليه ابناؤهم الذين اختاروا سبيل العلم والخطط الدينيـــة .
الا ان هذه « النهضة » الثقافية تحققت داخل الحدود الضيقة التي فرضت على التفكير الاسلامي منذ قرون ، فاقتصرت العلوم وخاصة الدينية منهـــا مثلا على النقل وتكرار ما اتى به الاولون غير محددة طرقها ولا موسعة ميادين اهتمامها .
اما في مجال الهندسة المعمارية ، فان امتزاج التاثيرات المحلية والاندلسية وبعض التاثيرات الوافدة في الشرق قد احدثت على العكس من ذلك أعمالا فنية طريفة مثل جامع يوسف داي او جامع حمودة باشا (القائمان قريبا من القصبة) وقصور رمضان باي وعثمان باي .
بيد ان كثرة التزويق (نقش حديدة) والزليج الملون جعلت هذا الفن لا يسلم من مظهر آفاقي Provincial او منحط .

وباختصار فان البلاد التونسية شهدت في النصف الاول من القرن السابع عشر انطلاقة واضحة على الصعيدين الاقتصادي والثقافي ، ولئن بقيت هذه الانطلاقة محصورة في الحواضر والارياف المجاورة وفي بعض القطاعات الاجتماعية ، فانها لم تعدم تاثيرات على الصعيد السياسي . فقد استفاد منها الدايات لتدعيم نظامهم واستفاد منها اكثر البايات المراديون لإرساء نفوذهم .

3) البايات المراديون أصحاب النفوذ بتونس

(منتصف القرن السابع عشر ـ سنة 1702 م.)

في نفس الوقت الذي اعلن فيه المراديون على رؤوس الملأ عن طابعهم التركي وولائهم لسلطان اسطمبول فانهم انتصبوا سلطة منافسة لسلطة الدايات وللانظمة التركية التقليدية وفرضوا عليها انفسهم شيئا فشيئا ولكي يصلوا الى هذا الغرض استخدموا القوى الجديدة التي استمدوها من الدعم الذي كانوا يلقونه من اصيلي البلاد .

اما مؤسس العائلة فهو مراد كورسو وهو مملوك من اصل كرسيكي اسر صغيرا واوتي به الى تونس فاشتراه رمضان باي ورباه ودربه على قيادة **المحلة** فكان يجوب الارياف في مواعيد منتظمة ليستخلص الضرائب وليُتِبّ حدًّا أدنى من النظام .

ثم انه بعد موت سيده حوالي سنة 1613 وبعد ان تخلص من منافسيه ، وجد نفسه متقلدا لوظيفة **باي** وكانت تجعل تحت تصرفه قوات عسكرية هي **المحلة** وحصيلة الضرائب المستخلصة من المقاطعات على انه بقي رغم ذلك تحت امرة الداي صاحب الامر والنهي على الصعيد المركزي .

ثم ان الغزوات الخاطفة التي كانت تقوم بها العساكر التركية التابعة لصاحب الجزائر غدت بالنسبة الى قسم كبير من القبائل فرصة لزحزحة نير حكام تونس فعمد هؤلاء بعد حرب سنة 1628 الى اعادة اخضاع داخل البلاد بصفة محكمة وذلك باشراف مراد باي (حتى سنة

1631) ثم بقيادة ابنه وخليفته حمودة باشا الى حدود 1645 .
وقد تعلقت همة هذين البايين خاصة بكسر شوكة القبائل المحاربة الكبرى التي تعيش على التخوم وخاصة منها اولاد شنوف في اتجاه الغرب واولاد سعيد في اتجاه الجنوب .
اما المجتمعات البدوية الاقل شوكة والتي تعيش في اماكن اخرى اقرب منها فانه لم يكن امامها الا الاستسلام وبعد ان بلغ المراديون غايتهم من السيطرة على جانب وافر من البلاد صرفوا همتهم الى تنظيم هذا المجال تنظيما عسكريا واداريا واقتصاديا يخدم اولا وبالذات مصلحتهم الخاصة .
فانشاوا الجيش أو طوروا الجيش المتركب من الاهالي من **زواوة** (وهم مشاة يستجلبون من بين القبائل البربرية وينظمون على النمط التركي) ومن **صبايحية** (وهم فيلق من الفرسان بمثابة الجندرمة) ومن قبائل مخزنية .
ان كل هذه القوى المنتظمة خارج اطار العسكر التركي بل والمنافسة له ، كان امرها يفلت من يد ذوي النفوذ العثمانيين التقليديين من داي وديوان ولا يرجعون بالنظر في واقع الامر الا الى الباي المرادي .
ثم انهم راجعوا النظام الجبائي ووسعوه ليشمل قسما كبيرا من سكان البلاد فتضاعف مردوده بنسبة ملحوظة ولكن ذلك كان يعود بالفائدة على الباي قائد المحلة و كان يقود العمليات بين القبائل و يسيطر على مجموع اللزامين **القياد** ويستخلص الضرائب من الرعايا الخاضعين لسلطته ، ومن المناطق الثرية ثراء نسبيا .
ونظرا لما كان له من امكانيات عسكرية ومالية ضخمة ولانه كان صاحب الحكم المطلق على البوادي ، فان الباي المرادي كان يقف حوالي منتصف ذلك القرن منافسا مباشرا للداي الذي كان نفوذه منحصرا في العاصمة وفي المدن التي فيها حامية تركية . من ذلك ان حمودة باشا نظم بباردو بلاطا بأتمّ معنى الكلمة وانشأ ادارةوذلك على مسافة غير بعيدة من العاصمة فافلت بالتالي من طائلة حُكم

الداي ومن ضغط الانكشارية . وهناك احاط نفسه خاصة بالاعيان والعسكر من الاهالي فكان يتبدى بينهم في صورة ملك . كما كان يظهر في ذلك المظهر بتنظيمه احتفالات رائعة يبهر بها اهل العاصمة وكان يلحق بخدمته الشعراء والادباء ليحسن صيته بين الناس وكان يكثر من تشييد المؤسسات الخيرية ويسرف في اظهار علامات التقوى. وباختصار كان حمودة باشا يتجلى للرعايا بملامح الامير الصالح (حسب التصورات المعهودة في المجتمعات الاسلامية) فيتميّز اشد التميز عن ذلك الرجل الفظّ قائد العسكر اي الداي التركي .

وفقد الداي شيئا فشيئا بعض ما كان له من تفوق . ففي سنة 1655 كان لحمودة باشا من القوة ما جعله يفرض مرشحه هو لخطة داي . الا ان ظفره كان متواضعا وكان شديد الاحترام للتراتيب الشكلية اي لتفوق الداي داخل العاصمة وفي بعض المناطق . وهكذا تمكن من ان يتجنب كل نزاع ظاهر الى ان توفي سنة 1666 .

ولم يظل الامر كذلك في عهد ابنه مراد الثاني الذي كان يتصرف تصرف الحاكم بامره فذهب الى حد اقالة الدايات من مناصبهم لانهم كانوا حسب رايه مستقلين اكثر مما ينبغي . وقد سجل قنصل فرنسا خلال ربيع 1673 « ان الاتراك اصالة قد جاهروا عائلة البايات ذوي القوة والبأس بالعداء فقر قرار اتراك تونس يقودهم داي حازم على ان يطيحوا بالبايات المراديين . فسار البايات وكانوا عندها على راس المحلة يقودون حملة عناصرها من الاهالي قاصدين مدينة تونس. وشتّتوا شمل جند الداي وحملوا على اعدائهم الاتراك حملة منكرة وكان ذلك في جوان 1673 .

ولقد خرج جند الانكشارية من المغامرة وقد اصابه الوهن الشديد . وسوف لا يمكنه هو او ممثلوه ان يسترجعوا نفوذهم السياسي الا بصفة عابرة كما حدث بين 1694 ـ 1695 بعد احتلال جند الجزائر لمدينة تونس او بين سنتي 1702 ـ 1705 مع ابراهيم الشريف . لقد انتصر النظام الملكي المرادي بلا منازع على نظام قهري في ظله كانت فئة

اجنبية تنعم بكل الامتيازات ، ذلك النظام الذي كان نظيره لا يزال قائما بالجزائر .
بيد أنّ النظام المرادي باضعافه للجند مع مواصلته الاعلان عن صبغته التركية ومعاملته الجمهور الواسع من الرعايا المحليين معاملة الشعوب المغلوبة كان يتعرض الى فقدان ركائزه الطبيعية التركية والى الانقاص منها بصورة خطرة ، دون ان يكسب الى جانبه ما يمكن ان يعوضها .
وقد برزت نتيجة هذه الحالة للعيان ، غداة وفاة مراد الثاني سنة 1675 عندما كان طالب كل من ابنيه محمد وعلي واخيه محمد الحفصي بالسلطة العليا لنفسه وسلاحهم بايديهم فتقابل المتنازعون على السلطة في حرب لا هوادة فيها قسمت البلاد الى سنة 1686 وهو تاريخ انتصار محمد بكر مراد ، بفضل مساعدة جند الجزائر وكانت مساعدة مبنية على المصلحة فكانت النتيجة ان لم يتوصل اي واحد من المتنافسين ـ تساندهم في ذلك مختلف فصائل سكان البلاد الاصليين وخاصة منها القبلية ـ الى ان ينتصر بوسائله الخاصة .
ثم رجع الهدوء بانتصار محمد باي سنة 1686 وذلك لبعض سنوات الا انه هدوء سيكدره الغزو الجزائري واعادة تنصيب « الحــزب » التركي بين نوفمبر من سنة 1694 وجويلية من سنة 1695 ، كما ان الحالة ستضطرب من جديد اثناء ثورة مراد الثالث على عمه رمضان في فيفري ـ مارس من سنة 1699 واخيرا بسبب نزوات هذا الرجل الدموية عندما تولى مقاليد الحكم 1699 ـ 1702 .
ثم ان ضابطا تركيا يدعى ابراهيم الشريف تعهد اثر عودته من رحلة الى المشرق (فيغلب على الظن اذن ان الامركان بايعاز من اسطمبول) بان يصرع المستبد الطاغية وان يضع حدا لتجربة المراديين فتم ذلك في شهر جوان من سنة 1702 .
وسرعان ما اخذ ابراهيم الشريف بيده مقاليد الامور وحاول ان يرجع الى الطبقة العسكرية التركية ما كانت تتمتع به من امتيازات لكن سرعان ما وجد نفسه يواجه معارضة شديدة من قبل الاهالي وكانوا

عوملوا معاملة قاسية نتجت عنها الثورات والانتفاضات .
تمّ انه جُـرّ الى الدخول في حرب مع صاحب الجزائرجرا فتخلىّ عنه قسم من العسكر المحلي ، وهزم وأسر وسرعان ما انهار نظامه غير مأسوف عليه ودون ان يترك ادنى اثر وحدث ذلك في شهر جويلية من سنة 1705. فكان دليلا على انه قد أصبح من المحال ان تعود الطبقة العسكرية التركية الى الحكم . ذلك ما فهمه الرجل الذي امسك بزمام الامور خلال ازمة جويلية 1705 اي حسين بن علي .

III ـ أسرة مالكة « قومية »: الحسينيون
(1705 ـ 1814 م) .

في ظروف عصيبة من صيف 1705 ، تولى مقاليد الحكم رجل يدعى حسين بن علي ، فقوّم الوضع واسس في الآن نفسه ملكا سيكتب له الدوام في ذريته ـ على الاقل بصفة صورية ـ الى سنة 1956 . بيد ان تاسيس هذا الملك في القرن الثامن عشر لم يتم دون حدوث مشاكل. فمن سنة 1728 الى 1756 بل وحتى سنة 1762 ، شهدت البلاد سلسلة من الاضطرابات والثورات ولم يستتب بها الامن والاستقرار ولم تبلغ المملكة الازدهار الذي بلغته ايام حمودة باشا (1782 ـ 1814) الا بعد هذا التاريخ .
ان هذا التطور السياسي الذي كلل بالنجاح قد صاحبه ـ ويفسره في معظمه ـ التقدم المادي والثقافي الذي شهدته البلاد (او قطاعات واسعة من المجتمع) طوال قرن طويل هو القرن الثامن عشر وكان ايجابيا في معظمه .

1) قيام النظام الحسيني (1705 ـ 1728 م.)

بعد ان انهزم ابراهيم الشريف واسر في منتصف شهر جويلية 1705 وجدت البلاد نفسها مهددة بغزو وشيك تشنه عليها عساكر داي الجزائر وعمت البلاد موجة من البلبلة والاضطراب فنصب اصحاب

الحل والعقد حسين بن علي بايا على تونس لما له من خبرات سابقة (وكان تقلد خططا شتى) ولما كان ينهض به من مسؤوليات في تلك الفترة (وقد كان كاهية لابراهيم الشريف بتونس) ويرجح ان ذلك تم ايضا بوصفه كان « كرغلي » اي من اب تركي وام من سكان البلاد الاصليين - ولصلاته وارتباطاته بمختلف الاوساط .

وقد صاحب هذا التعيين ان اختار عسكر الانكشارية دايا جديدا هو محمد خوجه الاصفر وكان رجلا حازما .

وتعاون الباي والدّاي تعاونا وثيقا ناجعا لصد المهاجمين وفي السابع من اكتوبر 1705 ، يئس داي الجزائر مما ابداه سكان تونس من مقاومة عنيدة فقرر الانسحاب فجأة وولى على اعقابه مدحورا . وكان ذلك مكسبا لحسين بن علي وعساكره من الاهالي اكثر منه للعسكر التركي - وكان يشتمّ منه تواطؤ مع نظيره الجزائري فتمّ ابعاده قليلا عن مجرى الاحداث .

ومهما يكن من امر ، فان حسين باي جنى ثمرة الانتصار في المعركة فاستغل ذلك للتخلص من منافسه الداي لصفر - وقد اصبح كثير الطموح - ثم من ابراهيم الشريف ، وقد فك داي الجزائر أسره ودفع به ضد الباي (اوائل سنة 1706).فلم يبق امام حسين بن علي حينئذ الا ان يحصل من اسطمبول على ما يجعل حكمه حكما شرعيا . وذلك ما فعله صاحبها دون عناء فمنحه فرمان التولية (جوان 1706) .

وهكذا جمع حسين باي السلط في يده تجميعا . فالعسكر التركي قد تضاءل عدده ومازجته عناصر من الكوارغلية وانحصر دوره في ان اصبح « قوة تسهر على النظام العام » فتخلى مرغما عن كل مطامحه السياسية . اما ممثلوه اي الداي والديوان ، فقد تم اخضاعهم وقل شانهم وانحصر عملهم في القيام ببعض الادوار الشرفية او شغلوا وظائف من الدرجة الثانية.اما مجلس الشرع (وهو اكبر هيئة قضائية شرعية) ومختلف الشخصيات الدينية ، لئن اغدقت عليهم النعم والالقاب الشرفية ، فقد ظلوا رغم ذلك خاضعين لارادة الباي

وحكمـــه .
ولقد فضل الباي حسين كي يسوس البلاد ان يستعين برجال لم يتقلّبوا سابقا في المناصب ويدينون له بكل شيء ، من مماليك ومن كوارغلية ومن رجال ليس لهم كبير شان فاخرجهم من حياة الخمول ورفع من منزلتهم .

ومن بين هذه الاصناف الاجتماعية التي كان الباي يطلب رفدها طلب الحريص نشير اولا الى « رجال الدين » او العلماء والاولياء الصالحين. كما استعان بالاعيان من ذوي الثراء اصحاب المال فاشركهم على نطاق واسع في استغلال موارد البلاد فتكونت منذ تلك الفترة ، عائلات من اللّزّامـة تتوارث المنصب ابا عن جد ، وأسر من الوكلاء يديرون املاك البايلك .

اما في البوادي ، فان الباي عاد الى استخدام قبائل المخزن من امثال قبيلة دريد وعمل خاصة على ان يجعل من رؤسائها موالي ومستشارين شخصيين يستقبلهم في باردو باستمرار ويدعوهم الى مائدته الخاصة . ثم ان حسين بن علي تعزز جانبه بكل هذه الدعائم فمارس سياسة فيها مزيد من التدخل في حياة الاهالي الخاضعين لسلطته وذلك بما سنّه من قوانين : فكان يفرض الغرامات بدون حساب ويتجاوز القوانين العرفية القبلية واحكام القوانين الشرعية . وكذلك بما كان يفرضه من الضرائب . فقد كان قواده ولزامته مكلفين بان يجمعوا من البوادي وبابخس الاثمان ما يمكن تسويقه من المحصولات ، وخاصة الحبوب ، ثم انها كانت تباع للتجار الاوروبيين بربح كبير . ولئن كانت نسبة الضرائب الفلاحية التقليدية قد خفت في غالب الاحيان ، فان جملة المبالغ المستخلصة من الجباية كانت تنحو الى التعاظم ولذلك لا ينبغي للمرء ان يندهش عندما يرى البوادي « بما جبلت عليه من الفساد » (كما يقول مؤرخو ذلك العصر ودعاة البايات) تتحين الوثبة كما في سنة 1717 واخطر منها كما في اوائل سنة 1728

2) عهد الاضطرابات وحكم « الطاغية » علي باشا (1728 ـ 1756 م.)

كان علي باشا ابن اخ لحسين باي . وقد عينه عمه وليّا للعهد ، فبقي كذلك زمنا طويلا حتى رزق الباي اولادا وفكر في توليتهم فابعد ابن اخيه عن المسؤوليات بتمكينه من وظيفته باشا (وهو لقب بلا مسمى) في اواخر سنة 1725.ثم شدد الباي من رقابته على الباشا الجديد لما احس منه حقدا وعداوة .

ثم ان علي باشا ثار في فيفري من سنة 1728 وجر وراءه كل الناقمين في البلاد اي قسما من الطبقة الحاكمة ومن اعيان تونس ، والاخطر من ذلك انه استمال عددا من القبائل والطوائف التي لم يكن النظام يحسن معاملتها (مثل سكان جبل وسلات واولاد عيار وغيرهم) وقد سموا منذ تلك الفترة **باشية** ، بينما سمي منافسوهم التقليديون الذين انضموا الى صفوف الباي حسين **حسينية** (مثلا جلاص وأولاد عون الخ...) .

ثم ان علي باشا ، هزم بعد عام ونصف من العمليات الحربية المضنية ففر الى الجزائر وعاد حسين باي الى الامساك بمقاليد الامور في البلاد ، لكن ذلك كان الى حين اذ أن علي باشا ، بعد ان حصل على نجدة عساكر الجزائر ـ وكانت اعانة مغرضة ـ هجم على البلاد التونسية في صيف 1735 وهزم عمه ودخل تونس ونصّب نفسه بايا ولكن حسين بن علي لجأ الى القيروان وكسب الى صفه معظم الاهالي الذين يسكنون وسط البلاد من حضر وبدو (القيروان وسوسة والمنستير من بين المدن ، وجلاص وجانب من دريد واولاد عون الخ.. من بين القبائل) فصمد امام ابن اخيه طوال خمس سنوات تردت البلاد اثناءها في حرب أهلية أليمة الى ان رجحت الكفة لفائدة علي باشا وابنه يونس فانهزم حسين بن علي وقطع رأسه في شهر ماي 1740 . فسلك ابناه بدورهما السبيل المؤدية الى الجزائر حيث استقبلا استقبالا حسنا لانهما كانا يوفران للداي وسيلة ضغط قوية على باي تونس .

اما علي باشا فظل يحكم البلاد بصرامة بعد ان اغتصب العرش بقوة السلاح ، وبعد ان سيطر على الوضع واستتب له الامر . فكان يبالغ في الانفراد هووابنيه يونس فمحمد بالسلطة ويصدر الاحكام السريعة ، وكانت في كثير من الاحيان دموية ، ويصادر الاموال .

وقد ظهر اثر كل ذلك اولا على الصّعيد المحلي بغلث خطير في السكة ، حتى أن الريال تردّى الى نصف قيمته وبامتداد لظاهرة العنف ، وبممارسة **للمشترى** (وكان يتمثل في ان يستلم البايلك الحبوب وغيرها من المحاصيل المطلوبة في السوق الخارجية مقابل سعر بخس) .

وقد اثارت هذه السياسة ردود فعل عديدة من ثورات اغرقت في سيل من الدماء كانتفاضة عسكر الانكشارية في سنة 1743 و 1752 وكانتفاضة قبيلة الهمامة الكبيرة سنة 1750 والاخطر من ذلك ان الاهالي تخلوا عن النظام تخليا شبه تام وخاصة عندما دقت ساعة الخطر سنة 1755

اما على الصعيد الخارجي فلم تكن سياسة علي باشا دون سياسته الداخلية حدة وعنفا . فقد استولى في صيف سنة 1741 على مركز الجنوبيين التجاري بطبرقة واسر جاليتها الاجنبية باكملها ووضع حدا للوجود المسيحي في تلك البقاع بعد ان تواصل قرنين كاملين . ثم التفت الى مركز « كاب نيقرو » (أو « تامكرت ») التجاري الذي كان يشغله التجار الفرنسيون شرقي طبرقة ، ويتعاطون فيه تسويق حبوب « فريقية » فافتكه منهم ودمره تدميرا . وكانت غايته من تلك السياسة الحازمة اجلاء التجار الاوروبيين من سواحل بعيدة عن نظره وذلك قصد مراقبة تصدير منتوجات البوادي فاغتاظت السلط الفرنسية وقامت الحرب بين الطرفين ولكن المملكة الفرنسية لم تصل الى طائل من خلال عملياتها الحربية فانتهى الامر الى ابرام معاهدة صلح (نوفمبر 1742) قبلت دولة فرنسا بمقتضاها جانبا كبيرا من شروط علي باشا ، وسرعان ما رجعت الامور الى نصابها اي الى ما كان من علاقات متينة ومتواصلة بين الدولتين ، لما كان بينهما من مصالح

تجارية مشتركة .
وبخلاف ذلك لم تزل علاقات علي باشا مع الجزائر في تدهور منذ سنة 1735 وهي السنة التي جاءت فيها عساكر صاحب الجزائر الى تونس لتمهد له السبيل الى العرش لكن كبرياء علي باشا وصرامته في كل ما يتعلق بشؤون السيادة من جهة ومطالبة اتراك الجزائر اياه بدفع ضريبة سنوية واللهجة الآمرة التي كانوا يخاطبونه بها من جهة اخرى ، ادت مجتمعة الى المصادمة ثم الى القطيعة بعد سنة 1740 .
فقد تحركت سنة 1746 للمرة الاولى حملة « جزائرية » في اتجاه مدينة تونس ولكنها اخفقت امام أسوار مدينة الكاف . ثم ان حملة اخرى بعد ذلك بعشر سنين افضت الى احتلال تونس (وقد نهبت في تلك المناسبة) والى اقصاء علي باشا عن الحكم وتعويضه بمحمد وعلي ابني عمه حسين بن علي في سبتمبر 1756 .
وقد كان لهذا الحادث اثران . ففي العاجل وعلى مدى خمسين سنة ، وجب على باي تونس الاعتراف بسيادة داي الجزائر (فكان الباي ينفذ اوامره ويدفع له ضريبة مقنعة) . وعلى المدى البعيد احدثت المشاهد الاليمة التي صاحبت نهب مدينة تونس (ومدينة الكاف قبل ذلك بشهرين) نوعا من الوعي « القومي » المعادي للجزائر . وربما تواصلت نتائجه الى يومنا هذا .

3) عودة الاستقرار وأوج الدولة الحسينية في عهد حمودة باشا (1756 ـ 1814 م.)

ان الامر الجدير بالملاحظة هو أن عهد الاضطرابات قد ولى وانقضى بسرعة نسبية بعد اعادة تنصيب ابني حسين بن علي ذلك التنصيب غير المشرف . ثم انه حدثت انتفاضة اذكى لهيبها حفيد لعلي باشا سنة 1758 بمناسبة وفاة محمد الرشيد وانتقال الحكم الى علي باي الابن الثاني لحسين بن علي ولكنها خمدت خلال صيف سنة 1762 كما لو كان ذلك من تلقاء نفسها . فكان آخر العهد بالحروب الاهلية .

فقد دارى علي باي ، وكان يتسم بالحذر ، جيرانه « الجزائريين » اي السلطات التركية المنتصبة بالجزائر وقسنطينية وارضى كل طلباتهم وامن جانبهم .

اما مع فرنسا ، فقد كانت العلاقات حسنة في جملتها ما عدا تلك الحرب القصيرة التي لم تكن لها من نتيجة تذكر ، والتي اندلعت سنة 1769 عندما الحقت كرسيكا بالمملكة الفرنسية . وكان حسن الوفاق هذا قائما على مصالح تجارية متبادلة ومتينة والذي زاده تدعيما من الجانب التونسي انتصار الشق المسالم من بين رجال الدولة وكان « ليبراليا » ومواليا لفرنسا وكان يتزعمه مصطفى خوجة اكثر الوزراء تاثيرا واشدهم ارتباطا بالمصالح الفرنسية .

ومن الممكن تفسير سياسة علي باي ورجال دولته المقربين مثل مصطفى خوجة والوزير الكاتب حمودة بن عبد العزيز (صاحب الكتاب الباشي) بتغلغل الراسمالية الاوروبية داخل البلاد التونسية وبتكامل مصالحها وتعايشها مع مصالح البايلك وابرز رجاله ، وبما ربطته من علاقات متينة مع طبقة كبار التجّار التونسيين ومع كبار صانعي الشاشية المصدرين لمنتوجهم ومع كل من له فواضل حبوب تباع للخارج (وكانت اوروبا متلهفة لتلك الحبوب) من بايلك ومن اصحاب الاقطاعات ومن قياد لزامة الخ...

اما على الصعيد الداخلي فان سياسة علي باي كانت على نفس القدر من المرونة والليبرالية فقد تخلى البايلك عن قسم من اختصاصاته وعن تدخله المباشر في الحياة الاقتصادية وترك الباب مفتوحا امام الاعيان اولئك الذين جعلوا يستغلون البلاد لصالحهم ويتعاملون من جهة مع البايلك ومن جهة اخرى مع التجار الاجانب وقد تعرضنا سالفا الى بعض اصنافهم .

ان هذه الليبرالية التي سلكها الباي تفسر اولا بظروف اقتصادية مواتية جدا وذلك على المستوى الخارجي اي على مستوى حوض البحر الابيض المتوسط وعلى المستوى الداخلي وبصفة خاصة بين سنتي 1765 و 1775 .

وقد تيسر ذلك ايضا بما لقيته سياسة الطبقة الحاكمة من مؤازرة لدى فئات اجتماعية لها تاثيرها البعيد في المجتمع من ذلك العلماء ورجال الدين على اختلافهم ، وقد كان الباي يوليهم كل عطف وعناية ، **والقواد ـ اللزامة** وغيرهم من الشركاء في البايلك وكانوا يطورون اعمالهم التجارية ويكتسبون مزيدا من القوة والمناعة ويؤسسون سلالات باتم معنى الكلمة تتوارث الوظيفة ابا عن جد (مثل عائلة بن عياد والجلولي والمرابط ونويرة وغيرها) .
ومن بين تلك الفئات ايضا شيوخ الارياف واعيانها ممن كسبهم النظام الى صفه بطرق شتى منها الاعفاء من الضرائب، والنعم والالقاب الشرفية، والعلاقات الخاصة مع الباي او مع اكبر وزرائه .
كان حمودة باشا ورث بعض هذه الظروف عند موت ابيه في ماي 1782 . وبفضل ما كان يتحلى به من صفات مكنته من استغلال بعض الظروف المواتية (ولم تكن جميعها حسنة) ارتقى هذا الامير بالنظام الحسيني الى اوجه .
ورغم بعض الازمات (مثل طاعون 1784 ـ 1785 ومجاعة 1804 ـ 1805) وتقهقر ملحوظ في رخاء البلاد فان الامن الداخلي لم يكدره في ذلك العهد مكدر ويرجع هذا الى عدة اسباب :
منها سياسة التحالف او الاشتراك مع الاعيان من الاهالي في المصلحة تلك السياسة التي واصلها حمودة باشا باكثر مما كانت عليه في الماضي من تنظيم ونجاعة .
ومنها الاعتدال النسبي في النظام الجبائي الداخلي . وقد صار ذلك ممكنا بفضل تضاعف الموارد ذات المصدر الخارجي (وكانت تتوفر من الجهاد البحري والتجارة الخارجية) .
واخيرا فان العداء التقليدي للدولة والنظام ولى في عهد حمودة باشا وعوضته اما محاربة « الدخيل » او في مستوى القبائل بوادر صراع « طبقي » بين العامة المستغلة (بالفتح) والاعيان المحظوظين .
وتجلت قوة النظام على صعيد العلاقات الخارجية في عديد الحروب

التي شنها حمودة باشا وخرج منها منتصرا . فقد جرّت قضية نقل بحري في بداية عهده الى قطيعة بين باي تونس ـ الذي كان يدافع عن مصالح رعاياه من التجار ـ والبندقية . وصفة هذه القضية ان بعض التجار من صفاقس استاجروا سفينة من البندقية لنقل بضائعهم من الاسكندرية الى وطنهم الا ان الطاعون تفشى بين ركاب السفينة فقادها ربانها الى مالطة حيث احرقت البضائع بامر من السلط هنالك فتعلل اصحاب البضائع بنقض شروط عقدة النقل وطالبوا بغرامة مالية تعويضا لما ضاع لهم من الامتعة. وساند حمودة باشا مطلب الرعايا لغرضين :

الاول هو الدفاع عن مصالح طبقة التجار وربط علاقة متينة معها .

اما الغرض الثاني فهو اظهار عزمه على تغيير العلاقات الاقتصادية القائمة بين تونس والدول الاوروبية تغييرا يخدم مصالح اميرها وتجارها وليس مصالح الجاليات الاجنبية فحسب. واراد حمودة باشا ان يضرب مثلا لكل الدول الاوروبية المتعاملة مع تونس، فاختار اضعفها في ذلك العهد ـ اي البندقية وكانت الاوضاع بها متدهورة ـ لطرح القضية ، وابدى الباي بين 1784 الى 1792 مقاومة لكل الضغوط العسكرية والسياسية وفرض في النهاية شروطه هو.

اما مع الدول الاوروبية العظمى الاخرى ، خاصة مع فرنسا ـ وكان له معها من العلاقات اكثر مما له مع غيرها ـ فقد وقف حمودة باشا موقفا اكثر حزما ودافع بنجاعة عن مصالحه ومصالح رعاياه المساهمين في الجهاد البحري او التجارة البحرية. وفعلا فان هذين النشاطين قد تضاعفت اهميتهما بسبب الحرب الاوروبية بداية من سنة 1792 وكانا من مشاغل قطاع من الناس ما فتىء يتوسع واصبح الباي متزعمه والمدافع عنه وكان هذا القطاع يتركب من بعض رجال الدولة مثل الوزير يوسف صاحب الطابع ومن كبار « القياد ـ اللزامة» مثل آل الجلولي وبن عياد ومن بعض التجار النشيطين مثل يونس بن يونس الجربي وبصفة عامة نجح حمودة باشا في ان يكسب اطارات المجتمع الى

سياسته باشراكهم في الارباح والخسائر المنجرة عن استغلال البلاد واستغلال الظروف الخارجية : فوجد لديهم مقابل ذلك مساعدة ناجعة عندما كان الامر يتعلق بالدفاع عن وجود النظام وبالدفاع عن استقلال البلاد ضد الخطر العثماني ثم « الجزائري » .
وفعلا فان تركيا ارادت ان تستغل انطواء اوروبا على نفسها وعلى مشاكلها سنة 1793 فحاولت ان تسترجع ما كان لها من نفوذ على شمال افريقيا فتدخلت في طرابلس تدخلا غير مباشر بمنح اوامر سلطانية الى ضابط تركي مغامر يدعى « علي برغل » فطرد ذلك الضابط عائلة القرمانلي من الحكم وكانت البلاد تحت تصرفهم يتوارثونها منذ اكثر من ثمانين سنة ثم افتك جربة من باي تونس . لكن سرعان ما رد حمودة باشا الفعل فلم يكتف باسترجاع جربة بل وجه جيشا قويا نحو طرابلس فاسترجعها واعادها الى عائلة القرمانلي المسالمة (1794) ولم يبق امام باي تونس الا ان يطلب المعذرة والتزكية من السلطان العثماني فوجه اليه بعثة يراسها وزيره يوسف صاحب الطابع تصحبه هدية فخمة (او ضريبة) فتغاضى السلطان عن الامر ومنح فرماناته من جديد الى حمودة باشا والى آل قرمانلي وكان ذلك سنة 1795 .
وكانت العلاقات مع داي الجزائر على جانب من الدقة والحساسية - ولنتذكر مثلا حالة شبه التبعية التي كان فيها باي تونس منذ 1756 - فكانت الفكرة الرئيسية التي واكبت عهد حمودة باشا الخروج من تلك التبعية واعداد العدة لما ينبغي لها فدعم عسكر الانكشارية شيئا فشيئا بطوائف جديدة من المشارقة وقوى من مدفعيته ومن اسطوله واعاد الى اسوار الكاف ما كان لها من مناعة (وقد سبق ان دكت في سنة 1756) كما اصلح اسوار مدينة تونس وبقي يتحين الفرص. هذا وقد جدت بالجزائر بين 1803 و 1805 انتفاضات عنيفة هزت اركان النظام التركي وعقبتها خلافات داخلية بين المسيرين فانتهز باي تونس تلك الظروف للتخلص من هيمنة داي الجزائر ولرفض ما كان يمليه عليه من اوامر وما يطلبه منه من اتاوة .

واتفق ان كان باي قسنطينة السابق مصطفى انقليز قد فر الى تونس مستنجدا بحمودة باشا فجهز الباي عسكره النظامي ووجهه نحو مدينة قسنطينة قصد افتكاكها وجعلها من جديد تحت حكم الباي المعزول. ولكن عسكر الجزائر تصدى له فهزمه واصبح التراب التونسي مرة اخرى معرضا لغزو وشيك .

فوجه الباي نداء الى كل ذوي الهمم في البلاد من اعيان موسرين ورؤساء قبائل ومن رجال صالحين وعسكريين محترفين ومن «**مزارقية**» (وهم فرسان القبائل المخزنية) فلبوا النداء وراوا للمرة الاولى ربما أن الدفاع عن نظام الباي دفاع عن قضية البلاد . فكسر زحف عسكر الجزائر على الحدود على ضفاف وادي سراط (اوت 1807) . ولقد كان ذلك الانتصار حاسما اذ تحرر باي تونس نهائيا من وصاية داي الجزائر.

وكان ذلك الانتصار من جهة اخرى انتصار الاهالي (مدعمة والحق يقال بمدفعية قوية) اكثر مما كان انتصار الانكشارية من الاتراك ، فاحس الباي منذ ذلك الحين انه اقل احتياجا اليهم مما كان واشعرهم بذلك .

ثم ان العسكر احس بانه مهدد في مصالحه فانتفض في سبتمبر من سنة 1811 ولكن الباي تمكن بفضل مساعدة الجنود من الاهالي من ان يغرق تلك الثورة في بركة من الدماء ، كما انتهز الفرصة ليزيد التقليص من صلوحيات العسكر التركي ومن وظائفه . لقد كان ذلك ايذانا بطي صفحة جديدة اذ اخذ النظام يستند على قوة الاهالي فكانت الاسرة المالكة تجد في ان تصبح « وطنية » على ان ذلك مرتبط ارتباطا وثيقا بتطور الاطارات الوطنية وظهور العلامات الاولى لوعي وطني .

فما هي القوى الاقتصادية والاجتماعية التي افضت بالبلاد في نهاية المطاف الى هذه النتيجة ؟

4) تطور تونس الاقتصادي والاجتماعي في القرن الثامن عشر

ينبغي ان نشير اولا الى عدد السكان ، ذلك المحور الاساسي الذي كانت الحياة الاقتصادية تقوم عليه في سالف العصور . فلقد تضاعف عدد المتساكنين في القرن الثامن عشر تضاعفا ملحوظا لانعدام الاوبئة من 1705 الى 1784 وتجمعت قوى البلاد الحية طوال اجيال ثلاثة فكانت حافزا منشطا للانتاج والاستهلاك والتجارة وذلك ما يفسر ازدهار سنوات 1765 ـ 1775 المذهل ذلك الازدهار الذي يعود الفضل فيه الى تضاعف عدد الرجال والى تعاقب سنوات كانت فيها المحصولات الفلاحية طيبة والى حيوية السوق الخارجية واتساعها. ولئن احتكرت طبقة المحظوظين جل ثمرات هذا الازدهار فانه لم يخل من بعض الانعكاسات الطيبة على حياة بقية افراد المجتمع .

والى جانب هذا الازدهار المادي نشطت الحياة الثقافية وانتجت اثارا يمكن الاستدلال من خلالها على ان البلاد على اعتاب نهضة . فلنذكر على سبيل المثال انجاز مؤلفين طريفين في التاريخ هما : « المشرع الملكي في سلطنة اولاد حسين بن علي تركي » لصاحبه محمد بن محمد الصغير بن يوسف الباجي (حوالي 1764 ـ 1769) و« الكتاب الباشي » للاديب ورجل الدولة حمودة بن عبد العزيز (حوالي 1775 ـ 1778) .

ورغم عودة المجاعة (في 1775 ـ 1777) والطاعون الجارف في (1784 ـ 1785) فان انطلاقة القرن الثامن عشر ـ في رأينا ـ لم تنتكس في ذلك الوقت . فقد لا تكون تلك الازمات سوى دليل على فائض ديمغرافي قد تجاوز مستوى الموارد المتوفرة في البلاد . ولعله لم يكن لوباء 1784 ـ 1785 ، ولعودته بعد ذلك ، من اثر يذكر سوى اعادة التوازن بين عدد السكان وحجم الموارد ، والا فانه يستحيل ان نفهم ما حققه حمودة باشا من انجازات رائعة .

فمن المستفيد حقا من ازدهار القرن الثامن عشر ؟ نشير بالدرجة الاولى الى طبقة السياسيين وعلى راسها الباي . فاليها كانت تؤول الارباح

الحاصلة من المكوس وموارد الهناشير الشاسعة وارباح مختلف الاعمال التجارية (وخاصة تصدير منتوجات البلاد) . ولا ننسى الجهاد البحري ، فلئن تقلص شانه في ذلك العصر ، فانه كان لا يزال قائما .
ثم ياتي بعد هؤلاء ، كل الموالين لهذه الطبقة ، من فقهاء ، وكانوا يقومون بالدعاية لها ومن « قياد ـ لزامة » وكانوا أعوان الباي وحلفاءه في استغلال خيرات البلاد ومن شيوخ عشائر وكانوا يركزون في مشيخاتهم نفوذ الباي وهيمنته .
لقد كان يوجد بتونس في ذلك العصر شبه « بورجوازية » محلية ، على جانب من القوة وكانت اكثر فروعها نشاطا متصلة بالاعمال البحرية من تجارة خارجية وخاصة بيع الشاشية فكانت تسوّق منها الى مختلف البقاع الاسلامية ما بين نصف مليون ومليون قطعة سنويا .
ولكن تلك البورجوازية كانت تصطدم بعقبات عديدة تقف دون تقدمها : فعلاوة على قلة تقدميتها وجمود ما كانت تستخدمه من تقنيات فانها كانت تلاقي في السوق الخارجية منافسة جدية من قبل الاوروبيين ، ولم تكن تستطيع ان تركز سيطرتها على داخل البلاد بسبب مقاومة المجتمعات القبلية . ولذلك وجب عليها ان تضع نفسها تحت وصاية الدولة وان تشترك معها . وقد بلغ النظام اوجه في ايام حمودة باشا ذلك الباي المتعاطي للتجارة والمشجع لها ، وفي عصر عائلات القياد رجال الاعمال مثل آل الجلولي وابن عياد وكبار التجار العاملين بالاشتراك مع البايلك في سوق البحر الابيض المتوسط مثل الحاج يونس بن يونس الجربي . وكان لهذا الترابط بين السياسة والاقتصاد سيئاته ايضا فان هذه البورجوازية التابعة للسلطة معاقة عن التطور من جهة ومعرضة لتقلبات السياسة من جهة اخرى وسيؤكد ذلك ويبيّنه بكل وضوح انقلاب الاوضاع سنة 1814 ـ 1815
فما كان نصيب الجماهير الشعبية من كل ذلك ؟ في الحقيقة كانت التغيرات بالنسبة اليها قليلة فان الاستمرار في استعمال طرق العمل نفسها والحصول على نسبة انتاجية ضئيلة قلما كان يسمح بفائض فلاحي

او نقدي . فقد كانت حالة تلك الجماهير رهينة التغيرات الظرفية وكان اما الرخاء النسبي والطمأنينة (كما في اول عهد حسين بن علي وسنوات 1765 ـ 1775 وحوالي 1800) او انكماش في الموارد وتضاعف التوترات (كما حصل ابان الحروب الاهلية في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، مثلا) .

لقد كانت الجماهير الشعبية مقهورة : وكانت مستغلة من قبل الدولة واعوانها والموالين لها . لكن حالما كانت ظروف البحر الابيض المتوسط تسمح بتوفير مداخيل ذات بال للبايلك وللاصناف الاجتماعية التي كانت لها علاقة بالنشاط البحري (في 1705 ـ 1720 وفي 1765 ـ 1775 وفي 1782 ـ 1814) فان الاستغلال كانت تخف وطأته وكان الاعيان يشركون في الارباح .

ان التوازن السياسي الذي كان قائما في القرن الثامن عشر ، على الاقل في بداية الستينات منه وفي عهد حمودة باشا لا يمكن ان يفسر بغير هذا . وكذلك اختلاله . فهو متصل بالتغييرات الحاصلة في الداخل والتي املاها الخارج منذ سنة 1815 .

العهد المعاصر

(1815 ـ 1956 م)

تقوم سنة 1815 علامة تشهد على التغير الحاصل في ميزان القوى بين اوروبا ، وكانت في اوج التحول وفي طريق التوسع ، وبين البلاد التونسية وكانت جامدة او في تراجع وتقهقر .
فالى حدود ذلك الوقت ، كان البايلك يمثل شبه حاجز فاصل بين اوروبا المسيحية ثم التجارية والمجتمع التقليدي التونسي .
ثم ان ذلك الحاجز طار شظايا تحت الضغط الاوروبي في القرن التاسع عشر ، فكان وقع التلاقي عنيفا ومضرا بالبلاد التونسية اذ سرعان ما دخلت في عملية تفتت داخلي طويلة افضت بها الى فقدان السيادة سنة 1881 .

ثم ان الحماية الفرنسية المنتصبة في ذلك التاريخ اعادت الى البلاد بعض النظام ، وادخلتها الى العصر الحديث ، بما حققت فيها من انجازات كبيرة وما احدثت فيها من تغييرات عميقة ولكن الامركان يخدم أساسا طائفة من المعمرين الاجانب ومن ورائها الراسمالية السائدة في العالم في ذلك الوقت وحصل تناقض حاد بين التغييرات الجذرية التي شهدها المجتمع التونسي باحتكاكه المباشر بالراسمالية وبانجازات حضارة القرن العشرين من جهة والسياسة الأنانية المتجمدة التي اتصف بها الاستعمار من جهة اخرى فاخذت الحركة القومية

- وهي رد فعل الاهالي على المستعمر - على عاتقها حل ذلك التناقض بمعارضتها لوضع الحماية ورفضها اياه .

I - القرن العصيب (1815 - 1881 م)

لقد بدا هذا القرن بداية لا تنذر الا بكل سوء : من ذلك وفاة حمودة باشا (في سبتمبر 1814) وانقراض الفريق الحاكم الذي كونه ذلك الباي العظيم ، وبداية سلسلة من السنوات كانت كوارث على المستوى الفلاحي وامتدت الى زمن متاخر من هذا القرن (ولنذكر هول ازمة 1867) .
واخطر من ذلك كله اندفاعة القوى السياسية والاقتصادية الاوروبية وقد تهيا لها الامر بفضل عودة الامن الى نصابه في اوروبا سنة 1815 وبفضل ما وفرته لها الثورة الصناعية من قوى اقتصادية وعسكرية وسياسية وفكرية لا يمكن التصدي لها او مقاومتها فقد بدأت اوروبا حملتها ضد بلدان افريقيا الشمالية بعد 1815 بتحجير نشاط القرصنة . ولم يكن الامر على جانب كبير من الخطورة ، لان هذا النشاط كان فقد منذ زمن بعيد ما كان له من شان باستثناء استعار جذوته من جديد ولفترة قصيرة في السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر وفي السنوات الاولى من القرن الموالي. اما الذي كان على العكس من ذلك كارثة بالنسبة الى البلاد التونسية، فهو تغير ظروف التبادل الاقتصادي مع اوروبا . وهو تغير فرضته سياسة المدفعية ثم مجرد الاتصال المباشر بين الراسمالية الغازية وعملائها والمجتمع التقليدي . فكان انحطاط قيمة المنتجات التي تصدرها البلاد التونسية (من حبوب وزيوت وشاشية وغيرها) وتم شيئا فشيئا انتقال تجارة التصدير ، وبالتالي مرابيحها الى ايدي التجار الاوروبيين وحصل تضخم في الواردات وكان هؤلاء التجار ينفردون باستجلابها .
اما النتائج فيسهل التكهن بها : خلل هام في المجال التجاري ، ونزيف نقدي ، وتخفيض في العملة المحلية وصعوبات تعاني منها

خزينة البايلك والطبقات المسيّرة وكان هذا قبل سنة 1830 :
ثم كانت بعيد ذلك سياسة الاصلاحات ، يشير بها على الباي القناصل والمستشارون والتجار الاوروبيون وينادي بها ايضا الوسطاء « الكمبرادوريون » وذوو النوايا الطيبة من الاهالي و لكلّ صنف دوافعه الخاصة فادى ذلك بالباي الى أن ينفق بلا حساب على شراء مواد اوروبية والى ان يقوم بتوظيفات مالية باهضة بقدر ما هي عديمة الجـدوى .
وسرعان ما استدانت الدولة من السوق العالمية : وكان ارلنجـي ERLANGER ذلك المغامر في الامور المالية وشريك الوزير الاول مصطفى خزندار اكبر صانع للـ « قروض التونسية » التي لم تكن تعود بالفائدة الا على المقرضين والوسطاء ومزودي الحكومة وقلما كانت لصالح الدولة .
وزادت الأزمة الداميـة الطين بلة ، فسارع ذلك بالبايلك الى هاوية الافلاس فوضعت امواله تحت وصاية اللجنة المالية العالمية التي تاسست سنة 1869 .
ثم ان قيام الحرب الاوروبية سنة 1870 بالاضافة الى بعض السنوات ذات المحاصيل الفلاحية الطيبة وعهد الوزير المصلح خير الدين 1873 ـ 1877 كل تلك العوامل امهلت النظام التونسي بضع سنوات اخرى قبل ان يتداعى.
ولكن منذ 1877 ـ 1878 ، تاكدت المطامح الاوروبية واستفحلت من جديد (نخص بالذكر منها الفرنسية) ، فكان السباق الى احتلال البلاد التونسية بين ايطاليا وفرنسا . الا ان هذه الاخيرة كانت الفائزة ، ففي اواخر افريل واوائل ماي 1881 ، اخترق جنودها الحدود وفرضوا على الباي معاهدة حماية (في 12 ماي) قضت على استقلال الدولة التونسية بصفة رسمية .
اما على الصعيد الداخلي فان انفتاح البلاد للمنتوجات والافكار والتجار ثم للماليين الاوروبيين قد نتجت عنه صعوبات مالية لا قدرة على

مواجهتها للدولة او لطائفة السياسيين التي حرمت علاوة على ذلك مما كان يوفره لها الجهاد البحري في السابق من موارد خارجية وحرمت اكثر مما كان يوفره لها تصدير منتوجات البلاد . فزاد الحكام من اثقال كاهل الرعايا بالضرائب . وكانوا بالاضافة الى ذلك تحت رحمة الكوارث الطبيعية والاضطرابات النقدية والفوضى السياسية التي اخذت تحلّ بالبلاد شيئا فشيئا .

اما الاعيان فقد تم اكراههم على ان يساهموا مساهمة باهظة في جهود دولة كانت تتعلق باوهى الاسباب لابتزاز الاموال ولذلك فقد اخذوا يتحلون عنها شيئا فشيئا . ويكفي دليلا على ذلك لجوء عدد من هؤلاء الاعيان الى القنصليات الاوروبية احتماء بها حتى يفلتوا من مصادرة الباي لاموالهم .

واتسعت الهوة من جديد بين العائلة الحاكمة واهالي البلاد . فاستنجد البايات اكثر فاكثر بالمماليك لتسيير اكبر المصالح الادارية اهمية. ولئن اظهر بعضهم مثل خير الدين وعيا ودرجة عالية من الشعور بالمسؤولية في قيامهم بمهامهم ، فان اغلبهم لم يقوموا الا بخدمة مصالح اسيادهم ومصالحهم الذاتية (والمثل الحي على ذلك هو مصطفى خزندار الوزير الاول من 1837 الى 1873) .

ولاسباب جبائية اساسا ، اندلعت الثورات في البلاد من جديد بعد فترة من الهدوء طويلة سبقت الاشارة اليها ، ثم ان الحركة سارت الى التعاظم الى ان بلغت ذروتها سنة 1864 وهي سنة ثورة علي بن غذاهم التي اشعلت البلاد بتمامها وكمالها وجعلتها تقف ضد الباي ومماليكه وسياسته الجبائية واصلاحاته .

وفشلت الثورة فاسهم القمع الذي صحبها في زيادة تخريب قسم لا باس به من البلاد وخاصة منطقة الساحل مصدر انتاج الزيت وكانت بالنسبة للنظام البقرة الحلوب . ثم عقبت هذه الازمة السياسية مواسم فلاحية سيئة ، ثم المجاعة والكوليرا سنة1867 : فاذا بالبلاد ـ وقد اصيبت في قوتها الديموغرافية وفي انشطتها الاقتصادية وقطعت عن

مسيريها ـ تنغمس في وضع لا مخرج منه واذا بالبايلك يعلن افلاسه ، على انه قد حدث نهوض مؤقت في السبعينات ، تسببت فيه الظروف الدولية التي ذكرناها آنفا ، وعودة سنوات الخصب والخيرات وتصرف الوزير الحكيم خير الدين (1873 ـ 1877) . فلقد حاول ذلك الوزير أن يؤسس من جديد ادارة نزيهة منظمة ، وان يطهر الحالة المالية المتعفنة (فاحرز على بعض النجاح) وان يعطي الفلاحة والصناعة نفسا جديدا ، كما حاول ايضا ان يعيد النظر في تنظيم شؤون القضاء والتعليم (وهو مؤسس المدرسة الصادقية) ./

وينبغي ان نضيف الى هذا ان خير الدين هو الناطق باسم جماعة من المصلحين ، (من امثال ابن ابي الضياف وبيرم الخامس) يمكن ان نقارنها بالبورجوازية الليبرالية الاوروبية في ذلك الوقت ، غير انه كانت تنقصها قاعدة اجتماعية حقيقية لانها كانت تتركب من اعيان كبار ، لئن كانوا من المستنيرين ، فانهم كانوا يستمدون نفوذهم من رضى الباي . وكانت جماعة معرضة للتصدع السريع .

ثم ان الباي ، استسلم لضغط القناصل الاوروبيين ولتأثير قسم من رجال البلاط فانهى تجربة خير الدين الاصلاحية في شهر جويلية سنة 1877 وتخلى بذلك تخليا نهائيا عن آخر فرصة له في اخراج البلاد من البؤرة . فكان السير من جديد الى الهاوية. وكرس ذلك رسميا في 12 ماي 1881 بانتصاب الحماية .

II ـ الحماية الفرنسية وتطور البلاد التونسية

1) الاطارات القانونية والادارية

كان فرض فرنسا لصيغة الحماية بحثا عن شكل آخر مغاير لتجربة ضم الجزائر اليها وكانت تلك التجربة قد كبدتها خسائر باهضة في المال والرجال ، فكانت الصيغة جديدة ومستوحاة من سابقة احدثتها

تتمثل في حكم البلاد حكما غير مباشر بواسطة السلط التقليدية بابقائها في وظائفها ولكن بمراقبتها عن كثب .
وهكذا فان دولة البايات وادارتها ظلتا كما هما ولكن قام الى جانبهما مراقبون فرنسيون من مقيم عام الى جانب الباي وكاتب عام لدى الادارة المركزية والوزراء التونسيين ومن مراقبين مدنيين في الولايات يشرفون على القياد وممثلي الساطة بها .
اما شؤون الدفاع والعلاقات الخارجية فهي وحدها التي انتقلت بتمامها وكمالها الى سلطات الحماية بمقتضى ما ابرم من المعاهدات .
كانت النية حسنة ولكن الواقع كان مغايرا لذلك تماما فسرعان ما حاد المراقبون الفرنسيون عما انتدبوا اليه بطبيعة الحال فعمدوا الى الادارة المباشرة ولم يتركوا لممثلي الساطة المحلية الا نفوذا صوريا.على انهم كانوا قليلي المعرفة والدراية بالمنهج والروح الذين تسيّر بهما ادارة عصرية .
واخطر من ذلك انه انتصبت بتونس مصالح « فنية » فرنسية محض ، تعهدت بادارة القطاعات الحديثة في حياة البلاد والتي ستكون عما قريب القطاعات الاساسية اي : قطاعات المالية والاشغال العامة والفلاحة والبريد والتلغراف والتعليم والشرطة وغيرها .
ثم انه تم شيئا فشيئا وضع تشريع مناسب للوضع حتى يمكن من تركيز المعمرين الاوروبيين بالبلاد ومن تطوير الاحتلال .
ومن الامثلة على ذلك انه في سنة 1885 وضع قانون عقاري الغرض منه تصفية وضعية الاراضي ومنحها صفة املاك تامة الشروط على غرار ما انتهت اليه اوروبا في هذا الميدان بعد قضائها على النظام الاقطاعي.
وكان القانون العقاري المستورد الى تونس مستوحى من قانون استرالي يدعى قانون تورنس ACT TORRENS وكانت فصوله مطبقة على حطام السفن التي يقذف بها البحر الى الساحل قبل ان تسند نهائيا الى صاحبها .
وهكذا اصبح الاطار القانوني جاهزا لتطور الاستعمار الاقتصادي وكان ذلك الغاية القصوى التي يطمح اليها النظام الجديد .

2) تطور الاستعمار بتونس

نظرا الى ان البلاد كانت تعتبر في الآن نفسه مستعمرة استيطانية ومستعمرة استغلالية (بواسطة رؤوس الاموال) فان تطويرها كان يستوجب توفير الرجال والمال .

اما المال فتدفق بغزارة . فبعد عشرين سنة وظف على البلاد التونسية نحـــو خمسمائة مليون فرنك ذهبا (بينما كانت ميزانيتها السنوية لا تكاد تبلغ الثلاثين مليونا الا بمشقة) .

واهتمت المؤسسات البنكية الفرنسية الكبرى بالامر نذكر منها خاصة الاتحاد الباريسي (روتشيلد) و« بنك باريس وهولاندة » ، وليس يعسر ان نتصور عندئذ تاثير هذا السيل الدافق من رؤوس الاموال على اقتصاد البلاد .

اما الرجال فلم يكن استجلابهم من فرنسا الى تونس بنفس القدر من السهولة نظرا الى الوضع الديموغرافي الذي كان قليل الازدهار في فرنسا طوال عهد الحماية..

ولذلك عمدت السلط المسؤولة الى تجنيس العناصر غير الفرنسية (من ايطاليين ويهود الخ..) بالاضافة الى سلوكها سياسة تشجيع للهجرة الفرنسية لا هوادة فيها . وقد وصلوا الى نتائج لا يستهان بها : ففي 1881 كان يوجد بتونس اثنا عشر الف اوروبي ، منهم سبعمائة فرنسي ، وفي سنة 1931 كان بها مائة واربع وثمانون الف اوروبي اما في آخر عهد الحماية فمن ضمن مائتين وخمسين الف اوروبي كان مائة وثمانون الفا يحملون الجنسية الفرنسية.

ومن الاسباب الاخرى التي كان يستوجبها حسن استثمار البلاد اقامة تجهيزات اساسية وخاصة شبكات من الطرقات للمواصلات . وبفضل الاعتمادات والقروض ما لبثت الخطوط الحديدية ان مدت عبر انحاء البلاد وكان ذلك اساسا لخدمة المناطق التي فيها مستوطنات فلاحية والمناطق المنجمية وقد تم مد اكثر من مائتي كيلو متر .

ثم عقبتها الطرقات فمدّت في البلاد شبكـة من الطرق المعبدة ممتازة طولها الجملي تسعة الاف كيلو متر (علاوة على خمسة آلاف كلمتـــر من الطرقات غير المعبدة هي الاخرى محل عناية) .
وكانت الموانى مجهزة بتجهيزات حديثة وتفي بحاجيات حركة ما فتئت تقوى وتشتد .
واخيرا كانت تشيد ـ الى جانب ابواب المدن العتيقة الباقية على سالف حالتها ـ مدن جديدة بحالها تستقبل الوافدين من الاوروبيين والانشطة الحديثة (المتمثلة خاصة في التجارة والخدمات)
اما البوادي فكانت تزدهر بها مستوطنات فلاحية هي محل كل رعاية وكل حماية من اراض اقتنيت في افضل الظروف وبدعم من البنوك ، ومن يد عاملة بثمن بخس ، ومن منتجات تستوى اسعارها عند البيع مع اسعار سوق « الوطن الام » بالاضافة الى بعض الامتيازات الاخرى التي كان يستطيع انتزاعها بكل يسر حزب من المعمرين الفلاحيين المنظمين تنظيمـا قويا وله من يدافع عنه في تونس وفي الـ « الوطن » وسرعان ما انتقلت الى ايدي المعمرين ـ وبطرق شتى ـ ثمانمائة الف هكتار من الاراضي اي خمس المساحـة الصالحـة للزراعـة ، والواقعة في أكثر الجهات خصبا فحققوا في تلك الاراضي نجاحا تقنيا وكدسوا ثروات طائلة ولم يكن ذلك نجاح « الاستعمار الديمقراطي » الذي كان يحلم به كل دعاة الحماية بل كان اساسا وبالدرجة الاولى نجاح الشركات الراسمالية ونجاح المعمرين الكبار وخاصة منذ الحرب العالمية الاولى ومنذ ادخال وسائل الاستغلال الميكانيكيـة .
ومن انجازات الحماية ايضا ، ان زاد استغلال الموارد المنجمية سرعـة وكثافة نظرا لضخامة المصالح المالية الموظفة فيها ، وللظـروف الليبرالية المخجلة التي كثيرا ما كانت تمنح فيها التسهيلات واخيرا لان الاقتصاد الفرنسي كان مفتقرا الى المواد الاولية ، وكانت البلاد التونسية تنتج اساسا الفسفاط والمعادن غير الحديدية .

وأنتصبت في ضواحي المدن ، وخاصة في ضواحي مدينة تونس مؤسسات شتى ، ولكنها كانت تقتصر على انتاج الحاجي الضروري ولا تتعداه ، لان السياسة الاستعمارية كانت تهدف الى تجنب اي ازدهار صناعي في البلدان المستعمرة يمكن ان ينافس ازدهار صناعات « الوطن الام » وفي الجملة كان بتونس حوالي 1950 نحو مائتين وثلاثين مؤسسة ذات اهمية نسبية (تشغل اكثر من خمسين اجيرا). ومن هذا المجموع كان مائتان وست يملكها اوروبيون .

اما التجارة الداخلية فقد شهدت على العكس من ذلك تطورا لم يعقه معيق ، وكان ينهض بها الاوروبيون او وسطاء من قبيل البورجوازية اليهودية التي سرعان ما تفرنست . لقد كان ازدهار التجارة هذا عنوان انتصار الاقتصاد النقدي ، خاصة في المدن والمناطق الريفية التي تسرب اليها الاستعمار الاوروبي .

اما التجارة الخارجية فقد قفزت الى الامام بخطوات عملاقة . وخاصة بعد التحسينات التي ادخلت على النظام الجمركي لفائدة « الوطن الام » (في سنة 1890 ثم في سنة 1928 الخ...) وسرعان ما انطلقت الانطلاقة المتوقعة من كل تجارة استعمارية ، تصدّر اساسا مواد اولية تستورد منتوجات مصنعة ، وقد تميزت زيادة على ذلك بعجز مزمن لم يكن له الا ان يستفحل مع تزايد عدد سكان البلاد التونسية وتغيّر الاذواق وتصاعد عدد الرغبات (خاصة منذ الحرب العالمية الثانية) .

اخيرا لا ينبغي ان يغيب عن اذهاننا ما دمنا في اطار الحديث عن تونس في عهد الحماية ـ تزايد خدمات من انواع شتى : من ادارية : (وكثيرا ما تم التنديد بما آلت اليه البلاد عندما اصبحت « مستعمرة موظفين ») ومدرسية (للاطفال الاوروبيين ولكن ايضا ، مع مضي الوقت ، للتونسيين وكانوا شديدي الحرص على المعرفة ، اولئك الذين اعتبروا منذ بداية عهد الحماية « قليلي الدراية بامور القتال ولكن شديدي التطلع إلى العلم والمعرفة) وصحية وغيرها .

لقد ، كانت تونس تدخل عالم الحضارة الصناعية بخطى ثابتة وذلك بفضل تطورها الناتج عن الحماية ولكنها كانت تدخله خادمة للراسمالية الفرنسية ولعملائها من كل نوع من اولئك البيض المعمرين الى البورجوازية الكمبرادورية المحلية ـ ولذلك ، كان الاحتلال وكانت التناقضات التي يمكن ان نشاهدها بتفحص التحولات الحاصلة في صلب المجتمع المحلي .

III ـ المجتمع التونسي في ظل الاستعمار

1) تحولات المجتمع التونسي

ولئن بدت هذه التحولات الى حدود سنة 1914 بطيئة بل ومنعدمة بالنسبة الى بعض قطاعات المجتمع التونسي ، فان نسقها قد تسارع منذ سنة 1920 حتى كان من نتائجها ان ظهرت للوجود بلاد جديدة ومجتمع جديد ، في بعض الوجوه .

أ – الحركة الديموغرافية

شهدت البلاد التونسية كغيرها من البلدان الغير اوروبية انفجارا ديموغرافيا حقيقيا ، وخاصة منذ الثلاثينات. واذا اعتبرنا ان نسبة الزيادات السنوية كانت 100 بين 1925 ـ 1929 ، فانها ارتفعت الى 122 بين سنوات 1935 ـ 1939 والى 150 بين 1945 ـ 1949 و 164 بين 1950 ـ 1954 .

اما بين سنة 1930 و 1955 ، اي خلال ربع قرن فقد ارتفع عدد السكان المسلمين من 2.100.000 الى نحو ثلاثة ملايين ونصف . وهي ظاهرة ذات مضاعفات لا عد لها ولا حصر من الناحية الاقتصادية (اختلالات شتى وخاصة بين المتساكنين والانتاج) والاجتماعية (انخفاض معدل عمر السكان وحركية اكبر) وكذلك السياسية (تناقضات بين المتطلبات الجديدة لمجتمع في خضم التحول واطار سياسي يطمح الى الثبات) .

ب – إنقلاب أوضاع الحياة في الأرياف

كان عدد السكان في الارياف يتضاعف بينما كانت المساحات الصالحة للاستغلال ومواطن الشغل تتناقص لتوفر المكان للمعمرين الاوروبيين ثم لاستعمالهم الوسائل الميكانيكية (وذلك بداية من فترة ما بين الحربين) .

أما في شمال البلاد ، حول الضيعات الشاسعة التي يملكها الأوروبيون ، حيث الزراعات الكبرى العصرية التي لا تحتاج الى عدد كبير من الأيدي العاملة ، فكانت تمتد منطقة شاسعة ، تقلها خصوبة ، وتضم أشباه العاطلين ويرتفع عدد المالكين لها أو المرتزقين منها الى حد تصبح فيه الأرض غير موفية بحاجة السكان . لا سيما أن طرق استغلالها بقيت تقليدية ، وهكذا ، ففي مقابل بضعة آلاف من التونسيين أصحاب الأراضي الشاسعة ، من الذين توصلوا الى استعمال الوسائل التقنية الحديثة ، كان يوجد مئات من الآلاف ممن يشتكون ضيق المساحة التي يستغلونها ، ورداءة المحصولات .

اما السكان المنتمون الى قبائل وسط البلاد وجنوبها فلم يكن حظهم اوفر من سواهم ، وذلك لعدة اسباب :

فقد حجر عليهم انتشار الاستعمار الاوروبي في الشمال استعمال اراضي تلك المنطقة مراعي موسمية في فصل الصيف . فانقطعت العلاقات التكاملية التي كانت تربط بين المناطق الوسطى او الجنوبية من البلاد والنواحي الشمالية ولم يعد يمكن للعروش القيام بعمليات المبادلة بين الجهات المنتجة للحبوب وتلك التي تنتج التمور والزيوت . واجبرت عروش مناطق السباسب على الاستقرار والاكتفاء بموارد وطنهم المجدب المتقلبة احواله (حسب الظروف الطبيعية) .

وقد احدث الأقتصاد الراسمالي والنظام الاداري الاستعماري بداية من الثلاثينيات تفككا خطيرا في الهياكل القبلية التقليدية وفي انماط العيش القديمة . فتوفرت لاقلية من المشائخ ومستخدمي الدولة والتجار وغيرهم فرصة الاثراء بينما كانت الاغلبية تنغمس اكثر فاكثر في مهانة

اقتصادية واجتماعية مدقعة وقد زاد الطين بلة تضاعف العنصر البشري بانتظام بداية من الثلاثينيات كما سلف ان اشرنا .
ونتيجة لجميع هذه العوامل وجد سكان مناطق السباسب انفسهم مضطرين الى مغادرة مواطنهم الاصلية والنزوح الى المناطق الشمالية والغربية من البلاد بحثا عن مواطن شغل .
وهكذا كانت البلاد حوالي 1950 تعد على ادنى تقدير بين 70 الف و 80 الف عامل فلاحي موسمي ، يشتغل كل منهم بمعدل يتراوح بين 60 و 80 يوما في السنة : لقد كانت البوادي اكبر مزود لذلك الجيش من العاطلين تعطلا جزئيا او تاما والذين كانوا يعدون مئات الالاف من الاشخاص (375.000 ؟) حوالي 1955 والذين كان قسم منهم يقطن اطراف المدينة في الاحياء القصديرية Bidonvilles .

ج – المجتمع الحضري : التطوير والتفقير

ان المدن والحواضر قد تطورت بطبيعة الحال مع الحماية ولكن ما يلفت الانتباه حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى او حتى حوالي سنة 1930 هو ازدهار المدن الاوروبية ازدهارا عظيما بحياتها الصاخبة ومغرياتها المتعددة إذا قورنت بالمدن العتيقة وقد أصبحت هذه الاخيرة تغط في سباتها العميق وفقدت ما كان لها من مكانة ، اما بعد 1930 فان الظاهرة الحاسمة كانت تتمثل في تطور الضواحي ، وهو أمر تَـلاَ النـزُوحَ عن البوادي وكان متسببا الى حد كبير في نمو التجمع السكني بمدينة تونس التي شهدت عدد ساكنيها يتضاعف تقريبا بين 1930 و 1956 اذ هو قد ارتفع من 300 الى 550 الف . واذ لم يصحب هذا التضاعف في عدد السكان ، تطور اقتصادي ، وادماج للسكان منسق في صلب المدينة فان قاطني المدن الجديدة او على الاصح قاطني تلك الضواحي كونوا قسما من المتساكنين غير مستقرين . موارد عيشهم غير ثابتة وعقليتهم هي عقلية من انبتّ عن الجذور .
اما الاقتصاد الحضري التقليدي ، اي اقتصاد المدن العتيقة فانه كان قليل الازدهار .

اما الصناعات الحرفية التي في الحواضر فقد تأثرت تأثرا شديدا باستفحال الفقر بين عامة الشعب بالبوادي ، والحال انهم يمثلون اكبر نسبة من حرفائها التقليديين ، كما تـأثرت بمنافسة المنتوجات المصنعة الاوروبية وكانت منافسة حادة لا رحمة فيها ولا هوادة .
وقد بدا انحطاط هذه الصناعات منذ زمن بعيد ، ولكنه تفاقم بعد سنة 1930 وخاصة بعيد الحرب العالمية الثانية عندما اغرقت الاسواق بالمنتوجات الفرنسية وتفرنجت الاذواق لدى الطبقات المتوسطة وحتى المتواضعة الحال من السكان (الحضريين) .

ولئن اصيبت الصناعات اصابة بالغة فانها بقيت رغم ذلك تشغل اكثر من 100.000 نسمة حوالي 1950 الا انها لم تعد تعمل بكامل طاقتها فانوال الاقمشة مثلا لم تكن تنتج الا الثلث او الربع من طاقتها ولم تعد توفر لاصحابها الا مكاسب ضئيلة لا تسمن ولا تغني من جوع ولكنهم تشبثوا بها واكتفوا بمداخيلها الزهيدة لان الانشطة العصرية - كالصناعات الثقيلة او التحويلية التي تستوعب عددا كبيرا من العمال - لم تكن مزدهرة حتى تصبح بديلا من الصناعات التقليدية من حيث التشغيل كما انها لم تكن قادرة على استيعاب كل ما كانت تدفع به البوادي الى المدن من الكادحين .

ولكن هذا لا يمنع من انه قد برزت بتونس طبقة شغيلة بالمعنى العصري ، حتى قبل الحرب العالمية الاولى ، وسنتعرض في مرحلة تالية الى ما كان من امر تنظيمها والى اهم مشاكلها .

د – الاسهامات الايجابية للحماية والفئات المحلية النامية

ان هذه اللوحة السريعة التي رسمناها للتطور الاقتصادي والاجتماعي في تونس المستعمرة قد تبدو لبعضهم اكثر قتامة مما هي عليه في الواقع لانها مركزة على تصوير مظاهر الخيبة والفشل والالام والمحن . ونقول انها صحيحة في خطوطها الكبرى ، وخاصة بالنسبة الى الفترة الممتدة

بين 1930 و 1956 بيد انه يحسن ان ندققها بالبحث عن المظاهر الايجابية فـي ما قامت به الحماية الفرنسية وبالبحث عن الفئات الاجتماعية المحلية التي كانت تستفيد منها وتذهب الى حد تقديم العون والمساعدة لها ، فانه لا يمكننا بدون ذلك ان نفهم دوام الحماية ثلاثة ارباع قرن . وهي فترة لم يقتصر الامر فيها على المقاومة من جهة وعلى القمع من جهة اخرى .

فبعد ازمة الستينات والسبعينات القاسية من القرن التاسع عشر ، ادخلت سلطات الحماية الى تونس ادارة نظامية وتنظيما انجع ولعل الاهالي قد اعجبوا بهما ايما اعجاب . والدليل على ذلك سكـون البلاد (النسبي كما سنرى) نحوا من ربع قرن (حتى 1906 ـ 1907)

ففي تلك المدة اصبحت تونس ميدانا شاسعا لتعبيد الطرقات ومد السكك الحديدية وانشاء الموانيء وقد اقتضى ذلك استجلاب اليد العاملة من صقلية وجنوب ايطاليا والجزائر وطرابلس .

بيد انه يجب القول ان بوادي شمال البلاد التونسية لم تدخلها الوسائل الميكانيكية حتى الحرب العالمية الاولى ، وان القبائل ـ وكانت لا تزال قوية ـ ما انفكت تشد اليها رجالها . ولتلك الاسباب لم تشهد البلاد التونسية آنذاك داء البطالة بعد .

اما في المدن ـ وخاصة بعد الحرب العالمية الاولى ـ فان الاهالي كانوا بدأوا ياخذون نصيبا مما توفره الحضارة الصناعية وكان الامر في البداية منحصرا في الطبقات الراقية من الاهالي ثم تبعتها الطبقات المتوسطة وحتى البـورجوازية الصغرى بحكم التقليد الاجتماعي فـارسلوا بابنائهم الى المدرسة العصرية وبمرضاهم الى المستشفى وادخلوا الى بيوتهم الماء الصالح للشراب والنور الكهربائي ما وسعهم ذلك واشتروا جهاز راديو TSF بالاضافة الى كل المنتوجات الصناعية الرخيصة ذات السحر والاغراء .

وبداوا يترددون على دور الملاهي ويشاركون في المباريات الرياضية على حساب الاحتفالات التقليدية التي كانت تقام في الاضرحة والزوايا

والتي كانت تترك وشانها للاجيال القديمة ، وانه لمن علامات التحول الكبرى ، ان الناس كانوا سنة 1955 يقرؤون من الكتب والمجلات سبعة اضعاف ما كانوا يقرؤونه سنة 1930 .
لقد كان انفتاح البلاد على العالم الخارجي انفتاحا حقيقيا الا انه لم يكن في حقيقة الامر الا لصالح اقلية محظوظة تتكون من اولئك الذين نجحوا في ان يرتبطوا على نحو ما بنظام اقتصادي او اداري او أيضا ثقافي عصري .
وكان ذلك مثلا شان عديد من التجار الذين قاموا وسطاء بين المنتجات الصناعية والحرفاء التونسيين . وكان ذلك أيضا شأن اصحاب الضيعات الكبرى من التونسيين (وكانوا بضعة الاف) الذين تتلمذوا في مدرسة المعمرين واستغلوا ضيعاتهم حسب المناهج العصرية .
ويمكن ان ندل على ذلك ايضا بمثل الاطارات الادارية المحلية المتوسطة والعالية التي ساعدت نظام الحماية بكل نجاعة كافأها على ذلك بان اغدق عليها الخيرات والنعم .
ويمكن ان نضيف الى صنف المنتفعين من النظام حتى صغار الموظفين والمستخدمين المسلمين في المؤسسات العصرية من اولئك الذين كانوا يتقاضون اجورا ضعيفة ولكن قارة وكانوا يفلتون من قبضة ذلك الخوف الدائم مما يخبئه الغد المجهول .
لم يكن عدد اصحاب المهن الحرة - من محامين واطباء وصيادلة - والمثقفين عامة كبيرا ولكنهم كانوا يمثلون (وما زالوا كذلك حتى اليوم) مثالا فذا من امثلة النجاح والارتقاء في السلم الاجتماعي بفضل المدرسة والدراسات العصرية ولما كان هؤلاء المثقفون يشعرون اكثر من غيرهم بمظالم الوضع - وضع الحماية - فانهم كانوا ممزقين بين الحل اليسير وهو تزكية الوضع القائم وسبيل الرفض والتنديد بمظاهر الظلم .
ومهما يكن من الامر فانهم امدوا الحركة الوطنية بالزعماء بدءا من باش حانبة سنة 1907 الى بورقيبة ورفقائه بعد 1930 .
وفي الجملة ، وباستثناء هذه الفئة الاخيرة ، فان الاصناف الاجتماعية

المحلية التي امكنها ان تحقق بفضل الظروف المواتية واحيانا بفضل الاسياد الجدد ، نجاحها الاجتماعي واثراءها كانت محظوظة ولعل احد اسرار النجاح النسبي للحماية يكمن حسب ما يبدو في الموقف السياسي الذي اتخذته هذه الاقلية وكانت في النهاية محظوظة ولكنها لم تكن الا اقلية وفضلا عن ذلك كانت الجالية الاجنبية الثرية تسيطر عليها من حيث العدد والقوة الاقتصادية والسياسية. ففي 1949 ومن مجموع 33.700 شخص لهم دخل سنوي يفوق 100.000 فرنك كان منهم 27.500 من الاوروبيين. ولذلك لا ينبغي ان نندهش عندما نجد قسما من« البورجوازية »التونسية الثرية ـ تشارك ـ بحذر ـ في الحركة الوطنية وخاصة في نهاية فترتنا هذه .

ومن جهة اخرى ، فان هذه الاقلية من الاهالي المحظوظة نسبيا كانت متجمعة اساسا في المدن اي في القسم المتطور « المتفتح » من البلاد التونسية ذلك الذي اشرنا اليه في بداية هذا العمل والذي قابلناه بتونس العميقة المقهورة الساخطة ولقد كانت الحركة الوطنية في قسم مهم منها تعبيرا عن سخط تونس « العميقة » ، ولكنه كان تعبيرا أطّره وصاغه ـ باسلوب خاص ـ قادة من تونس الاخرى ، تونس التفتح والعالم المعاصر.

IV ـ الحركة الوطنية وتحرر البلاد التونسية

كانت الحركة الوطنية رد فعل التونسيين على سيطرة المستعمر وكانت الاغلبية ترفضها لأسباب دينية (وهي حال الجماهير وحال تونس العميقة) واقتصادية (اذ كان الاستغلال هو الغرض النهائي لكل نظام حماية) ونفسية (لان العلاقات بين المستعمرين (بالكسر) والمستعمرين (بالفتح) لم تكن سهلة البتة) وايديولوجية (اذ ان النخبة المثقفة المحلية التي تتلمذت على المدرسة الفرنسية لم يكن لها الا ان تنظم الى المثل العليا التي تؤمن بها تلك المدرسة الداعية الى الديموقراطية

السيـاسية) .
غير ان التعبير عن تلك المشاعر التي يكنها التونسيون للنظام الاستعماري الذي فرض عليهم قد كان يختلف تبعا للظروف والملابسات :
ـ فقد استعرت نار الحركة الوطنية استعارا عنيفا قصيرا في البداية ثـم عقب تلك الانتفاضة صمت طويل ـ نسبيا ـ مدة ربع قرن تقريبا (من 1881 ـ 1882 الى 1906 ـ 1907) .
ثم تكونت الحركة الوطنية شيئا فشيئا على اسس جديدة وبرهنت على وجودها قبل الحرب العالمية الاولى (1907 ـ 1912) ثم بعدها (1919 ـ 1925) .
وتجذر الشعور الوطني وبلغت الحركة اشدها منذ الثلاثينات فدخلت الاخير والحاسم الذي انتهى بالاستقلال سنة 1956 .
ومن جهة اخرى يمكن ان نلاحظ طوال تاريخ الحركة الوطنية وجود مستويين او صعيدين :
فعلى مستوى الجماهير ، كان الشعور الديني ، اي الانتماء الى امة عربية اسلامية يكون دائما الايديولوجية الضمنية والمبرر العميق ، وان كان هذا العامل في الظروف العادية غير كاف بمفرده لتعبئة تلك الجماهير.
ولقد اقتضى الوصول الى تلك التعبئة ،كل التحولات العميقة التي احدثها الاستعمار (خاصة بعد الحرب العالمية الاولى) بتأثير العالم المعاصر في قطاع هام من المجتمع التونسي وبالظروف العالمية (ازمة 1929 والحروب العالمية واخيرا عمل النخبة المثقفة) .
ولئن كان الاعيان التقليديون في معظمهم موالين للحماية محايدين ، فانه على العكس من ذلك قد تكونت في صلب الـ « طبقات الوسطى » وحتى الشعبية التي تسكن الحواضر والقرى ، نخبة مثقفة واطارات اجتماعية جديدة تولدت عن المدرسة والعالم العصريين . وكانوا « وطنيين » بالمعنى الاوروبي للكلمة وعمدوا الى العمل السياسي المنظم على النمط الذي كانت تمارسه الاحزاب في البلدان الاوروبية.
ومن تلاقي العفوية الشعبية ـ المؤطرة ـ وعمل النخبة الواعي المنظم ـ

وقد نزلت الى الميدان - بدأ تاريخ ازدهار الحركة الوطنية التي اصطبغت بفضل هذه التركيبة الثنائية وهذه القيادة النخبوية ، بصفات خاصة . ولنعد الى اهم مراحل هذه الحركة منذ انتفاضة 1881 حتى الحصول على الاستقلال في بداية سنة 1956 .

1) **العهد الاول** (1881 - 1914 م.)

اتسمت بداية انتصاب الحماية باستعار جذوة قتال مماثل - في صورة مصغرة - لثورة الامير عبد القادر في الجزائر من 1832 - 1847 والحرب التي دارت في الريف بقيادة عبد الكريم بالمغرب من 1920 الى 1926 .

كان ذلك رد فعل قبائل وسط البلاد وجنوبها - وقد انضمت اليها مدينتا صفاقس ، وقابس دون سائر المدن - ضد نفوذ الباي ، (وكان الثوار يرددون انه « باع بلاده للفرنسيين ») وضد نفوذ حماته الجدد . اما القياد القدامى والرؤساء التقليديون لتونس وكان ابرزهم علي بن خليفة فقادوا الحركة وجروا وراءهم الاهالي من وادي مجردة الى التخوم الجنوبية ولكن المقاومة المسلحة لم تدم الا صيفا واحدا ، فكان شهر اكتوبر 1881 مؤذنا بتشتت فلول الثائرين ثم اندحارهم الى طرابلس المجاورة ، ارض الاسلام ومركز النفوذ العثماني التي يمكن للقتال ان ينطلق منها على اسس جديدة . وواقع الامر ان ذلك كان نهاية الانتفاضة . وكان محكوما عليها لقلة التوازن بين الطاقة العسكرية الفرنسية التي دفع بها الى خضم المعركة وبين قوة القبائل التي تجمعت وعبئت في الانتفاضة .

وكان هذا الفشل دليلا ، لا فقط على قلة جدوى الانتفاضة المسلحة (في سياق ذلك العصر) ، ولكن ايضا على قلة جدوى رد فعل « تونس العميقة » ان هي اعتمدت على قواها الذاتية فقط .

ثم كان بعد ذلك الصمت ، اوشيء كالصمت ، دام سنوات طوالا اما في البوادي فان الاحتجاجات كانت تذهب هباء وذلك في صورة عديد من العمليات الفردية المحدودة المفعول وغير المحكمة (وكانت

صحف المستعمر تصيح مندده بقلة توفر الامن في البوادي) هذا ان لم تتعرض لتصرفات اعوان السلطة من الاهالي فتشكوهم الى السلط الفرنسية الحامية وتطالب برفع الضرر عنها .
اما النخبة المثقفة المنحدرة من الطبقة الحاكمة قديما فقد انكبت على نوع من النقد الذاتي للمجتمع ، لكي تشخص المرض وتقدم على العلاج فكان عهد الاصلاح الثقافي وقد قامت به اساسا الصحافة (من ذلك جريدة الحاضرة وقد تاسست في 1888 والزهرة في 1890) والتعليم (الخلدونية وقد فتحت ابوابها سنة 1896 ، وتعهدت بان تقدم لطلبة جامع الزيتونة ما يكمل ثقافتهم المعاصرة من علوم وتاريخ وجغرافيا الخ) .
وفي فيفري 1907 ظهرت جماعة « الشباب التونسي » Jeunes Tunisiens الى الوجود باصدارها جريدة « التونسي » ومن ابرز اعلامها المحامي علي باش حانبة المنتمي الى عائلة كانت ذات شان قبل الحماية ، والجامع بين ثقافة اروبية متينة وتكوين عربي صحيح فكان لذلك مسلحا اكثر ممن سبقه من « الوطنيين » للدفاع عن بني قومه وللكفاح السياسي ، ويمكن اعتبار علي باش حانبة اصدق ممثل لجماعة « الشباب التونسي » من الناحية الاجتماعية والثقافية والسياسية .
فكانوا مصلحين عندما واصلوا عملية نقد مجتمعهم وتربيته وجعله يلتحق بركب الحضارة الاوروبية المتقدمة من الناحية الاجتماعية والثقافية والتكنولوجية والظافرة سياسيا الا ان اعجابهم بتلك الحضارة كان لا يمنعهم من التاكيد على انتمائهم الى حضيرة الاسلام ومن التعبير عن عطفهم على «حركة تركيا الفتاة» Jeunes Turcs وحتى التضامن معها في وقت لاحق ، وقد اسهموا ايما اسهام في بلورة اوضح لمفهوم « الامة التونسية » وفي الدفاع عنها .
على انهم رغم ذلك لم يكونوا يناهضون نظام الحماية ، وكانوا يرون فيها حتمية تاريخية بل وعامل تقدم ولكنهم كانوا ينددون بتعدياته الصارخة وينتظرون من السلطة الحامية اصلاحات حازمة ـ خاصة في

مجال التعليم ـ لاصلاح حالة ابناء بلادهم .
غير انه لم يلبث ان خاب املهم لان النظام الاستعماري لم يستجب الى مطامحهم ورغباتهم واكثر من ذلك ، فان «الشبــاب التونســي » «Jeunes Tunisiens» قد وجدوا انفسهم وهم يقارعون الاتهامات والسخرية المريرة يصبها عليهم دي كرنيار DE CARNIERE وامثاله من المتعصبين المدافعين عن « تونس الفرنسية ».واحتدت اللهجة ، وامتد نشاطهم الى تنظيم اجتماعات شعبية لنقاش مسالة منح الجنسية الفرنسية لليهود التونسيين ، ومسالة اصلاح التدريس بالجامع الاعظم (1909 ـ 1910) .
وسرعان ما قربهم الاعتداء الايطالي على طرابلس العثمانية من اسطانبول وضاعف من نزعتهم الاسلامية .
وفي الآن نفسه ، فان التوتر الذي احدثته حرب طرابلس قد تسبب في انتفاض عامة الشعب بمدينة تونس (يوم الجلاز نوفمبر 1911) ، فحدثت اصطدامات دامية مع الجالية الاوروبية وخاصة الايطالية وتبعها قمع عنيف ولكن مسؤولية « الشبــاب التونســي » في هذه الحوادث لم تثبت قط .
ثم ان حادثة التراموَاي « في فيفري 1912 » جعلتهم يتراسون حركة مقاطعة تلك القطارات ويدافعون عن مطالب المستخدمين التونسيين في تلك الشركة الاجنبية. وكان الاتصال بين المثقفين من ابناء العائلات الكبرى ومن ذوي الثقافة العصرية وعامة الشعب في مدينة تونس بل والعناصر العمالية التونسية الناشئة على وشك الحصول سنة 1919 فشعرت السلط الاستعمارية بالخطر الذي يتهددها فضربت حركة«الشبــاب التونســي»،فاختار باش حانبة الهجرة الى تركيا حيث فاجاته الحرب وحيث قضى نحبه وكان ذلك ايذانا بان عهدا قد ولى وان صفحة من صفحات التاريخ قد طويت .

2) الحركة الوطنية غداة الحرب العالمية الاولى

سار المجتمع التونسي بخطى اكثر ثباتا نحو تاكيد شعور وطني معبيء

للطاقات وذلك بانفتاحه الكبير على ساحة دولية يسودها الاضطراب نتيجة الحرب ولازمة 1929 الاقتصادية ولكل ما اسهم في صياغة ملامح القرن العشرين ، وبتغيره في الداخل تغيرا عميقا بعد ان حط عليه الاستعمار بكل ثقله هذا من جهة وبحلول العالم العصري بجميع اشكاله في عقر داره من جهة اخرى .

وقد كتب له ان يعيش تجربتين او قل فترتين حاسمتين من تاريخه : الاولى تجربة الحزب الدستوري الذي كونه الاعيان في البداية ، ومعها اول تجربة نقابية تونسية بين 1920 و 1925 ثم الثانية وكانت اكثر عنفوانا وشعبية وهي تجربة الحزب الدستوري الجديد في الثلاثينات .

فمنذ نهاية الحرب العالمية الاولى تجمعت حول عبد العزيز الثعالبي قيدوم السياسة التونسية - ثلة من المثقفين من ذوي التكوين الجامعي الفرنسي (امثال السافي) ومن خريجي الجامع الاعظم (امثال الثعالبي نفسه) ومن اعيان تونس (علي كاهية) وكونوا « الحزب التونسي » ثم « الحزب الحر الدستوري التونسي » وقد اعلن هذا الحزب عن نفسه امام العموم والسلط ، في شهر مارس من سنة 1920 .

وكانت تسميته استنادا الى دستور 1861 وقد كان أوقف العمل به بعد تجربة قصيرة مخيبة للآمال ولكنه اصبح رمزا وسابقة لوطنية تبحث لنفسها عن مستندات تاريخية. وكان برنامجه سياسيا بالدرجة الاولى اذ كان يطالب بدستور يضمن تمثيلا ديموقراطيا للمتساكنين من تونسيين وفرنسيين ويقيم حكومة مسؤولة امام برلمان منتخب ، ويضمن الفصل بين السلط ومساواة الجميع امام القانون والحريات العامة الخ... وهكذا فان الشخصية القانونية التونسية (اي نظام البايات المعترف به في النصوص القانونية للحماية شرعا ولكن غير المعترف به فعلا) ستعود حسب مبادىء الديموقراطية السياسية التي دعا اليها المنتصرون في حرب 1919 والتي تقبلها رجال القانون والصحافة التونسيون

بمنتهى الحماس .

وقد عرض كتاب الثعالبي « تونس الشهيدة » الذي نشر في اوائل 1920 بباريس هذا البرنامج السياسي ومسائل اخرى وهو يندد اولا بكل ما ارتكبه النظام الاستعماري من مظالم شتى كما يحتوي التاكيد القاطع على الوجود التاريخي لامة ودولة تونسيتين . وكان يعرض في خاتمته وبصورة اكثر اعتدالا وقابلية للتطبيق اهم المطالب التونسية ومنها تلك المطالب المشار اليها آنفا . ولقد كان لذلك الكتاب صدى بعيد في عصره وبعده فكان بيان الوطنية التونسية .

وقد تم عمل الحزب الجديد على مستويين : عمل في اتجاه السلط من جهة وآخر في اتجاه الجماهير التونسية من جهة اخرى .

وقد اختار المسيرون اسلوب العريضة وارسال الوفود فاتصلت السلط الفرنسية في « الوطن الام » وفي تونس وكذلك بلاط الباي ، وحتى ندوة فرساي VERSAILLES (في فيفري 1919) بوفود وبرقيات ولوائح شتى بين 1919 واوائل 1922 .

وقد انتهى الامر بالباي الناصر ، وكان محل استعطاف من الدستوريين ، الى تبني قسم كبير من مطالبهم وطالب سلطات الحماية بتلبيتها او يستقيل . وقد احدث هذا الموقف حركة مساندة شعبية واسعة النطاق نظمها رجال الحزب وقادوها في اوائل فيفري 1922 .

فتدخل المقيم العام « لوسيان سان »بكل ثقله وقرن الديبلوماسية بالتهديد فحصل على تراجع الباي في 5 افريل وعلى اجهاض حملة المطالبة الدستورية التي بلغت اوجها في ذلك التاريخ . وكان ينقص قيادة هذه الحركة السلاح الشعبي اذ كانوا مترددين في استعماله .

ومهما يكن من امر فقد كان للدستوريين فضل انشاء اول حزب سياسي جماهيري ، له نظامه المحكم بدءا من اللجنة التنفيذية في القمة الى الخلايا المتفرقة بتونس وبسائر مدن الايالة . وقد اظهر هذا الحزب في بعض المناسبات قدرة على تجنيد الراي العام وعلى تنظيم مظاهرات مشهودة كتلك التي وقعت يوم 5 افريل 1922 بتونس والمرسى مساندة

للناصر باي او يوم 25 مارس 1925 في مراكز متعددة من العمالة حول مسالة الاصلاحات .
ولكن هذا الحزب كان يشكو بعض العلل التي هي في صميم تكوينه ، وخاصة المنبت الاجتماعي لمسيّريه فقد كانوا ينتمون - عدا بعض الحالات الخاصة - الى أوساط ميسورة من « البورجوازية » ويشكلون قيادة متكونة من السياسيين البارعين الذين يستنكفون بحكم المنشا والمزاج والمصلحة - من اعمال العنف ولا يعرفون او لا يحبون قيادة حركات شعبية واسعة النطاق الا نادرا .
ففي اوائل صيف سنة 1921 - وكان يغلي غليانا بسبب حرب الريف ، ما ان ظهرت من قبل السلط الفرنسية علامات تدل على التشدد حتى بادر زعماء الحزب فاعلنوا انهم في عطلة صيفية . ووجب انتظار نهاية شهر سبتمبر حتى تدخل مناضلو القاعدة كي يجروا الزعماء وراءهم ويرجعوا الى الحزب حيويته ويؤكدوا وجوده ولكن لوقت قصير فقط .
وفي سنة 1924 وبداية 1925 وقعت في تونس تجربة لها ما للدستور من قيمة ووزن ولكن قضي عليها في المهد . انها محاولة محمد علي تنظيم حركة نقابية تونسية .
كان مولد محمد علي بالحامة قرب قابس ثم كونته تجارب عديدة عاشها اثناء حرب طرابلس سنة 1911 وفي تركيا زمن الحرب وحتى في برلين بعد الحرب .. وعندما رجع الى تونس في مارس من سنة 1924 بادر بإنشاء جمعيات التعاون الاقتصادي وشركات استهلاكية (صيف 1924) كما ساند الاضرابات التي شنها عمال رصيف تونس وبنزرت (اوت سبتمبر)
واخيرا اسس نقابات تونسية مستقلة عن النقابات الفرنسية بتونس وصفاقس وقابس وقفصة وبنزرت (بداية من شهر اكتوبر 1924) ، وفي نهاية هذه السنة تكونت « جامعة عموم العملة التونسيين » « س . ج . ت . ت » C.G.T.T. بتزكية من الحزب الدستوري وبمساعدة وحماس من قبل بعض اعضائه (توفيق المدني ، الطاهر

الحداد .)
اما من الجانب الفرنسي ، فلئن كانت جمعية اتحاد الشغل العام الفرنسي س.ج.ت ، ذات النزعة الشيوعية يمثلها فينيدوري FINODORI تقدم مساندتها للجامعة المحلية فان بقية الجالية الفرنسية ومن بينها الاشتراكيون كانت على العكس تناصبها عداء صريحا كما كانت السلط الاستعمارية تتسقط عثراتها . فمنذ الاضرابات الكبرى الاولى التي شنتها جامعة عموم العملة التونسيون او تبنّتها في جهة « بوتانفيل » POTINVILLE وفي مؤسسات حمام الانف ، في آخر شهر جانفي 1921 ، ردت السلطات الفعل بكل عنف ، فاوقف محمد علي واهم الاعضاء المسيرين لجامعة عموم العملة التونسيين وكذلك فينو دوري واتهموا بتدبير تآمر دستوري شيوعي .
عند ذلك ابتعد المسيرون الدستوريون عن الجمعية النقابية المهددة حذرا منهم ولكن ايضا حسابا سياسيا . فقد كانوا يأملون كثيرا من تجمع اليسار CARTEL DE(S) GAUCHE(S) الذي وصل الى الحكم في فرنسا خلال خريف 1924 ويتوقعون منه الشروع في اصلاحات سياسية هامة تدخل على نظم الحماية في تونس وفقا لما كانوا يطالبون به منذ 1920 فسارعوا بالتنديد بالشيوعيين وتقربوا من المعتدلين وخاصة من الاشتراكيين وذهبوا الى حد ان طلبوا من العمال التونسيين الانسلاخ من « جامعة عموم العملة التونسيين » والانضمام الى صفوف الجامعة العامة للعمّال س.ج.ت الفرنسية على عكس ما كان يرى الطاهر الحداد الذي واصل نضالا مستميتا لفائدة جامعة تونسية مستقلة في جريدة « افريقيا » .
وتعرض محمد علي ورفاقه الى احكام قاسية (آخر نوفمبر 1925) وهكذا قضي على اول تجربة نقابية محلية في المهد .
وفي تلك الفترة اغتنمت السلط الاستعمارية قلة تصميم الزعماء الوطنيين والتوتر الذي احدثته حرب الريف فاتخذت اجراءات ضد الصحافة والحريات العامة وكل نشاط سياسي في اواخر 1925 واوائل

1926 (وقد سميت تلك الاجراءات بـ «الاوامر الخادعة Decrets scélérats فاخمدت صوت الحزب الحر الدستوري وعادت الى تدعيم النظام الاستعماري فوجب انتظار ظروف اخرى ورجال آخرين لتنشيط الحركة الوطنية من جديد بعد سنة 1930 .

3) منعطف الثلاثينات والحزب الدستوري الجديد

سبق أن ذكرنا أنّ النشاط الاستعماري تطور وتدعم في غضون الثلاثينات وذلك في نفس الوقت الذي تسارع فيه نسق التحول داخل المجتمع المحلي تحت تأثير عامل الاستعمار ووقع العالم العصري. وفي الاثناء قامت الازمة الاقتصادية العالمية التي ظهرت انعكاساتها على البلاد التونسية منذ سنة 1931 فانخفضت اسعار المواد الاولية (من قمح وشعير وزيت وصوف ...) ومست صغار الفلاحين الذين يبيعون تلك المواد مسا بالغا. ففي 1934 على سبيل المثال كانت اسعار الزيت تمثل 35 % من قيمتها سنة 1928 . وفي اكتوبر 1934 كانت ثلاثة الاف عقار معقولة مسجلة في قائمة المحاكم لكي تباع بيعا عدليا .

وحوالي سنة 1930 كانت السلطات الاستعمارية تبدي تفاؤلها باقامتها احتفالات ذات وقع اليـــم في نفوس التونسيين . من ذلك المؤتمر الافخارستي سنة 1930 ، وخمسينية بسط حمايتها سنة 1931.ومن جهة اخرى اخذت تلك السلط تعطي دفعا جديدا لسياسة توطين الفرنسيين واتخذت في هذا الاطار اجراءات الغرض منها تيسير تجنس التونسيين بالجنسية الفرنسية وهو ما جعل الوضع متفجرا .

ففي اواخر سنة 1932 ، بدات الحوادث المنجرة عن مسالة التجنيس اذ اعتبر الشعب كل من يتجنس مارقا كافرا وليس له الحق في ان يدفن في المقابر الاسلامية فتعددت الحوادث العنيفة والموحشة كلما مات مسلم متجنس. اما السلطات الفرنسية فحصلت من اكبر السلطات الدينية بتونس على فتوى يمكن للمرء بمقتضاها ان يتجنس دون ان يكون قد تخلى عن عقيدته الاسلامية ، وتدخلت الصحافة الوطنية فشنت حملة عنيفة حول مسألة التجنيس وجعلت مستوى الحوار يرتفع

الى مناقشة بقاء الامة او تلاشيها وبرز رجال همهم ان يفتحوا آفاقا جديدة للحركة الشعبية وان يعطوا الحركة الوطنية ، وقد ادركها الفتور منذ أواخر 1925،دفعا جديدا .

كانوا من المثقفين المنحدرين من صلب البورجوازية البلدية اوالقروية وكان اغلبهم من الآفاقيين (من الساحل والوطن القبلي وجربة الخ.) وكانوا زاولوا تعلمهم في المدرسة الفرنسية العربية ، ثم في المعهد الصادقي واخيرا في الجامعة الفرنسية فمكنهم ذلك من التحصيل على الثقافة والتجربة السياسية السائدتين في اوروبا في ذلك العصر. وكانتا سلاحين ضروريين للنضال الناجع في تلك السنوات فانتصب هؤلاء المثقفون الشبان ابان رجوعهم الى وطنهم حوالي 1930 مربين لبني قومهم رائمين غرس افكار ومفاهيم « حديثة » كمفهوم القومية (حسب النمط الاوروبي) في نفوسهم ومدربين اياهم على اساليب الكفاح العصرية التي برهنت على جدواها في البلدان الاوروبية المعاصرة (سواء الشيوعية منها او الفاشية) .

ويمثل الحبيب بورقيبة نمط المثقف والسياسي لذلك الجيل فقد ولد في السنوات الاولى من القرن العشرين بالمنستير في وسط متواضع ، ودخل المعهد الصادقي سنة 1913 وواصل تعلمه بفضل التضحيات التي قدمها له اخوه الاكبر منه سنا ثم رحل الى باريس سنة 1924 فدرس القانون والعلوم السياسية وشارك في خضم النشاط الفكري والسياسي الذي كان سائدا في أوساط الطلبة التونسيين وغيرهم وعندما عاد الى تونس سنة 1927 كان الرجل قد تكون بعد .

كانت افق اولئك المثقفين المستغربين Occidentalisés تقف عند الحدود الضيقة للبلاد التونسية كما صاغتها سياسة الحماية والاقتصاد المعاصر والحركة الفكرية العامة فاقلموا أو أنهوا اقلمة المفهوم العصري لكلمة امة واخرجوا الى صعيد الوعي ما فعله العالم المعاصر على صعيد الحياة اليومية اي المجموعة القومية التونسية بانها قسم متميز تمام التميز عن الامة الاسلامية والعربية وعلى انها مجموعة حقيقية متماسكة

من الاشخاص لا مجرد «شتات من الافراد» وهي العبارة التي كان يرددها بورقيبة ورفقاؤه .

وهنا ينبغي ان نشير الى ان ذلك الوعي القومي التونسي لم يصبح واضحا وعمليا تماما الا في اذهان النخبة الاجتماعية او الثقافية وفي اذهان اولئك الذين كانوا يرتبطون على نحو او غيره بالعالم الحديث .
اما في مستوى الجماهير الشعبية والمتعلمين ذوي التكوين التقليدي فان فكرة الامة العربية الاسلامية بقيت حية.وكان الكفاح السياسي يصطبغ في كثير من الاحيان بصبغة الجهاد الديني وهكذا تعايش او اختلط في صلب الحركة الوطنية التونسية مجالان اوطبقتان من طبقات الوعي هما مفهوم الامة التونسية بالمعنى الضيق ومفهوم اوسع هو مفهوم « الامة الاسلامية » قد لعب الزعماء العصريون كثيرا على غموض المفهومين هذا واختلاطهما فقادوا الكفاح على المستوى التونسي البحت فتبعتهم الجماهير لان الايديولوجية القومية كانت تطابق موضوعيا مقتضيات العصر ولان هؤلاء الزعماء كانوا يعرضون عليهم آفاقا للعمل جديدة على عكس الزعماء القدامى من الحزب الحر الدستوري الذين جمّدوا الحركة سنة 1925 .

وفعلا فالذي كان يفرق بين الزعماء الجدد في الثلاثينات وسابقيهم الاكبر سنا ، كان المنهج واسلوب العمل اكثر منه الاديولوجية فقد قرروا الاتصال بالجماهير واشركوهم في الحركة وعرفوا كيف يؤطرون الطبقات الشعبية وذلك ما يفسر نجاحهم السريع على حساب المسيرين القدامى وقد حرموا شيئا فشيئا من مؤيديهم او تضاءلوا الى مجموعات محدودة .

كانت استفاقة الحركة الوطنية قد حصلت سنة 1931 ـ 1932 تحت تأثير عوامل شتى ومتنوعة وخاصة بمناسبة قضية التجنيس فاستعاد الحزب الدستوري الحياة بفضل تلك المناسبة ولكن ايضا بفضل عمل المثقفين الشبان يمثلهم بورقيبة والمتجمعون حول صحيفة جديدة

هي « لاكسيون تونيزيان » .
وفي سنة 1933 كان من نتائج السياسة الفرنسية،المتكونة من اجراءات قمع ومن تنازلات شكلية لفائدة الوطنيين،أن قربت اولا بين مختلف النزعات في الحزب الدستوري (مؤتمر 12 ، 13 ماي حيث ضبط برنامج مطالب) ثم حـل الشقاق بينهم حول المسائل التكتيكية .
وفي آخر تلك السنة ، انشق الزعماء الجدد : الاخوان محمد والحبيب بورقيبة والدكتور الماطري والمحاميان الطاهر صفر والبحري قيقة عن قيادة الدستور القديمة وجعلوا يقاومونها ليمسكوا بايديهم مقاليد الحزب.
وافضت الحملة النشيطة التي قام بها اولئك المنشقون الى أئتلاف مؤتمر قصر هلال في الساحل يوم 2 مارس 1934 ، ومن ذلك المؤتمر سينشأ الحزب الدستوري الجديد.ولم يهتم ذلك المؤتمر كثيرا بتحديد برنامج سياسي (وهو ما يفرض صلوحية الميثاق الذي صوت عليه المشاركون في مؤتمر ماي 1933) ، ولكنه اهتم خاصة بالتنديد بالفريق المسير سابقا وبصياغة قواعد اساسية جديدة للحزب من ذلك : تنظيم محكم البناء وانضباط داخلي تام وفي الآن نفسه ديموقراطية شاملة في صلبه .
ثم اعلنوا عن مقاطعتهم « اللجنة التنفيذية » وهي الهيئة المسيرة للحزب واحلوا محلها مكتبا سياسيا متكونا من الشبان المنشقين فكان الماطري رئيسا والحبيب بورقيبة امينا عاما .
وسرعان ما شرع الفريق الجديد في العمل : فعقد اجتماعات عديدة في كامل انحاء البلاد وبذل مساعي كبيرة لاستقطاب ما أمكن من المنخرطين والتنديد بمساوي الحالة التي جر اليها الاستعمار (وكان الظرف مناسبا للغاية) فاتى كل ذلك اكله ، ففي بضعة شهور ، كان الحزب الجديد يمد فروعه في كل مكان تقريبا ، وينظم اجتماعات شعبية مقوّضا اركان الحزب القديم كما أصبح بالنسبة الى السلط الاستعمارية قوة تبعث على القلق والانشغال، لا سيما وقد بلغت حملته الدعائية مناطق العروش الحساسة .
فردت السلط الفعل بكل حزم يوم 3 سبتمبر 1934 بان اوقفت مسيري

الحزب الجديد ونفتهم الى جنوب البلاد ومنعت كل نشاط سياسي .
كان ذلك اول حلقة من سلسلة المحن سيمر بها الحزب الدستوري فلا يهن ولا يسقط بفضل متانة بنيته وعمق تجذره في البلاد .
ورغم ما اصاب بعض المنفيين الى الجنوب من ازمات الشك ووهن العزيمة ورغم تخاذل بعض المسيرين الآخرين العاملين بتونس ورغم ما احرزه المقيم العام بيروطون PEYROUTON من انتصارات في النصف الثاني من سنة 1935 فان الحزب بقي في نهاية الامر حيا يعلن عن وجوده بالعرائض والمناشير السرية وحتى بالمظاهرات الشعبية (في بداية المصادمات العنيفة التي وقعت في سبتمبر 1934 بالساحل او في شهر فيفري 1936 بتونس ، وفي عديد من الجهات داخل البلاد) .
ثم ان الحكومة الفرنسية قررت في 21 مارس 1936 تغيير المقيم العام وبالتالي تغيير السياسة التي اتبعتها بتونس الى ذلك الحين .
ثم ان الانتخابات التي وقعت في فرنسا في شهر ماي 1936 والتي نجحت فيها الجبهة الشعبية فتولت الحكم ولدت في تونس آمالا عريضة فاغتنم مسيرو الحزب الدستوري الجديد عودتهم الى الشرعية والجو الليبرالي الذي عاد الى تونس مع الجبهة الشعبية فعادوا ينظمون الحزب من جديد ويمدون فروعه في البلاد حتى انه كان يفخر في المدة الواقعة من اكتوبر ونوفمبر من سنة 1937 بانه يعد 70 و 80 الف منخرط• مجتمعين في حوالي 350 او 400 خلية بالاضافة الى المنظمات الاخرى التي تدور في فلكه (وهي الشبيبة•الحزبية والكشافة والتجمعات الثقافية الخ...) .
ولم يكن الحزب، رغم قوته بهذا السند الشعبي، يعرض على فرنسا غير برنامج من المطالب المعتدلة : اي اصلاحات ديموقراطية من بينها تمثيل التونسيين في صلب مجلس منتخب وحكومة مسؤولة والنظر في اصلاح النظام الاداري والقضائي لفائدة الاهالي ، واخيرا اصلاحات اقتصادية واجتماعية واضحة مفصّلة . كان الاستقلال هو الغاية ولكنه لم يكن يطالب به مطالبة عاجلة بل لم يكن حتى مما يؤمل (خاصة

بسبب المطامع الايطالية) .
ولكن الجبهة الشعبية غرقت منذ 1937 في صعوبات جمة بفرنسا نفسها ولم تكن قادرة على التخلص منها . اما على المستوى المحلي ، فان الحزب الاستعماري « حزب المهيمنين Prépondérants كان يحبط كل محاولة فرنسية ترمي الى ترضية اي مطلب من مطالب الوطنيين .
وفضلا عن ذلك فان المناخ الاجتماعي كان يتدهور تدهورا مستمرا من جراء سياسة التضخم المالي المتبعة في فرنسا وما نتج عنها من غلاء في المعيشة فتعددت الاضطرابات والمشادات الدامية واخذ صبر الجماهير الشعبية ينفذ شيئا فشيئا .
ثم ان رجوع الشيخ عبد العزيز الثعالبي خلال صائفة 1937 ومساندته للحزب القديم احدثت ـ لفترة وجيزة ـ منافسة حادة بين الحزبيين الوطنيين وجرّت الحزب الجديد الى تصليب مواقفه خاصة وقد كان المناخ السياسي في فرنسا متقلبا منذ سقوط اول وزارة ألفها « ليون بلوم » Léon Blum وان عمليات القمع بدات في المغرب والجزائر .
فقرر الحزب الدستوري الجديد ـ وكان نفوذ بورقيبة في صلبه يتعاظم ـ ان يزيد من ضغطه على السلط الفرنسية للوصول الى نتيجة وخاصة في شهر ديسمبر 1937 وللتخلص من المعتدلين (كمحمود الماطري) .
كان التصادم أمرا لا مفر منه ، فبعد ثلاثة اشهر من التوتر غذّاه زعماء الحزب الجديد ومن القمع المقنع الذي كانت تمارسه سلطات الحماية أفضى الامر الى الحوادث الدامية التي جدت يوم 9 افريل 1938 اذ هب الشعب ساخطا فتصدى لارادة بعض السلط المحلية سحق الحركة بالقوة (مغتنمة سقوط الحكومة الثانية التي ألفها ليون بلوم اثناء الليلة السابقة يوم 9 افريل) .
كانت المظاهرة عنيفة والقمع لا هوادة فيه وكانت نتيجتها عشرات الموتى واكثر من مائة جريح وعلى اثر ذلك اعلنت حالة الطوارىء واوقفت اطارات الحزب الدستوري الجديد (وكانوا يعدون حوالي900)

ووقعت تتبعات ، ومن ذلك الحين لم يفرج عن بورقيبة ولا عن رفقائه الا سنة 1943 فطويت صفحة اخرى.

4ـ الحركة الوطنية والحرب العالمية الثانية

ان التوتر العالمي والقمع الشديد الذي مارسته السلطات العسكرية قد حد كثيرا من النشاط الوطني ، فاتخذ ذلك النشاط ، بقيادة رجال مثل الباهي الادغم والحبيب ثامر في كنف السرية ، اشكالا متنوعة من اللائحة الى الوفادة الى المنشورات السرية العنيفة واعمال التخريب (من ذلك العمل الذي استهدف سور ثكنة القصبة يوم 25 اكتوبر 1939)

كان مطلب الدستوريين الجدد يتركز في نقطة هي التالية :

الافراج عن المعتقلين السياسيين وخاصة منهم بورقيبة ولكن فرنسا كانت لا تزال تحتفظ في تونس ـ كما في بقية شمال افريقيا ـ بفيالق عديدة من الجنود وتواصل فيها سياسة قمعية لا هوادة فيها ولذلك لا ينبغي ان يندهش المرء عندما يشاهد لدى الجماهير الشعبية يقظة المشاعر الموالية للالمان والتي تعود بصفة خاصة الى الحرب العالمية الاولى وللمعاهدة الالمانية التركية وكان عدد كبير من المناضلين وحتى من المسيرين الدستوريين يشاطرون ذلك الشعور العام رغم التحذيرات والدعوات التي كان يوجهها اليهم بورقيبة من السجن لتعاطفه الشخصي مع الديموقراطيين ولحسن تقديره لميزان القوى .

وفي جوان 1942 اعتلى عرش تونس امير ذو نزعة وطنية هو المنصف باي ، ابن الناصر ، ذلك الباي الذي احدث ازمة افريل 1922 وكان بايا مثقفا بل كان اكثر ثقافة من كل الذين اعتلوا عرش تونس ، وكان رجلا طيبا ، صريحا في هيئته وحديثه ولم يلبث ان اصبح شعبيا في البلاد ، وخاصة وقد تفاعل به الوطنيون خيرا ومنحوه ثقتهم فجذب اليه حركة وطنية مرتبكة لان اكثر زعمائها نشاطا كانوا في السجن ، ولان الدستوريين القدامى قد انسحبوا طوعا (من ذلك الثعالبي) ولان بعضهم الآخر قد انضم الى الباي .

ولما كانت سلطات الحماية تمر بفترة ضعف ، فان الحركة الوطنية اغتنمت الفرصة وجعلت تنهض من جديد بفضل الظروف المساعدة ولصالح المنصف باي . فنظمت المظاهرات الشعبية وأنشدت الاناشيد الوطنية ورفعت الاعلام الوطنية التونسية كل ذلك في جو من الفرحة العارمة والاندفاع الجماعي .

اما في المستوى العملي فان الباي قد اظهر نية القيام بدور نشيط في الحياة الادارية للبلاد،على الاقل فيما يتعلق بالاهالي،ففي 2 اوت 1942 قدم مذكرة للمقيم العام ليحيلها الى حكومة فيشي

كانت تحتوي على عدة نقاط من برنامج الوطنيين ومطالبهم ذات الصبغة السياسية (خاصة تمثيل التونسيين في المنظمات المنتخبة) والادارية (كتمكين الاهالي من الوظائف العمومية) والمدرسية والاجتماعية الخ... وكما فعل ذلك الحزب الدستوري الجديد بين 1936 ـ 1938 فانه لم يضع وجود الحماية الفرنسية محل نقاش ولكنه كان يرمي الى ارجاعها الى صبغتها الاصلية اي الـــى نظام مراقبة وليس ادارة مباشرة كما هي الحال انذاك .

وطبيعي ان السلطات الفرنسية المنتصبة بتونس لم يرق لها كثيرا هذا المنعرج الذي اخذته الاحداث ولكنها وجدت نفسها عاجزة عن ان ترد الفعل في تلك الظروف من تلك المرحلة . خاصة وان العساكر الالمانية ـ الايطالية احتلت تونس يوم 9 نوفمبر 1942 (في نفس الوقت الذي احتل فيه الالمان في فرنسا « المنطقة الحرة » وزادوا في الحد من صلاحيات اعوان الحماية ـ وان ابقوا شكليا على السلطة الفرنسية في البلاد .

كانت جيوش المحور اذن بين 9 نوفمبر 1942 و 13 ماي 1943 منتصبة بالبلاد التونسية ودارت رحى الحرب فيها باطوارها المختلفة ، فتمتع التونسيون والباي والاحزاب الوطنية والجماهير بحرية فعلية سرعان ما رأت الجماهير ان الفضل فيها يرجع الى حسن نية المحور ازاءها . ولهذا السبب ولاسباب اخرى قديمة ـ حظي الالمان في تلك

الفترة بشعبية كبيرة لدى معظم التونسيين .
على ان الباي وبايعاز من السياسيين المحنكين من الحزبين القديم والجديد من أمثال الماطري وشنيق والقليبي وفرحات ، لم ينجرّ وراء الحماس الشعبي ، ولم يلبث ان اعلن منذ ان احتل المحور البلاد حياده ثم انه بعد ذلك ترك الامور على حالها وامتنع من اتخاذ بعض التدابير التي قد تحمله مسؤولية في عهدة المقيم العام الفرنسي واستمر على رفضه ان ينحاز الى جانب المحور انحيازا واضحا قاطعا .
لقد كان الخط الموجه لسياسته تاكيد السلطة التونسية تجاه ممثلي الحماية ففي غرة جانفي 1943 على سبيل المثال شكل - من تلقاء نفسه وبدون ان يستشير المقيم العام - وزارة قسم منها يتكون من الوطنيين ، فكان رئيسها محمد شنيق وكان الدكتور الماطري وزيـــر الداخلية (وكان بعث هذه المصلحة في حد ذاته برنامجا كاملا) وكان صالح فرحات يشغل منصب وزير العدل الخ...
على ان هؤلاء الرجال من ذوي الخبرة قد عملوا على دفع الباي الى مزيد من الحذر واجتهدوا في ان يبقوا على علاقات ودية مع سلطات الحماية الفرنسية وكذلك مع المحتلين الالمان والايطاليين .
الا انهم انتزعوا من المقيم العام عدة تدابير لفائدة التونسيين من ذلك الافراج عن المعتقلين السياسيين (حتى قبل تكوين وزارة شنيق) وتمتيع الموظفين التونسيين بمنحة الثلث الاستعماري التي كان يتمتع بها الفرنسيون دون غيرهم والمحافظة على عقارات الخمس من تعديات الاستعمار .
اما على بساط الواقع فان تحرر الاعوان التونسيين وحتى الجماهير من السلطات الفرنسية كان كبيرا فاغتنم الزعماء الوطنيون الظروف لاعادة بناء الحزب الدستوري الجديد والاندفاع في عمل نشيط خاصة بعد كل تلك الفترة من كبح الجماح .
وتمثل ذلك النشاط في الصحافة والاذاعة والجلسات والخطب والمظاهرات .

أما الحزب الدستوري القديم وكان أقل تجذرا في الشعب واكثر اعتمادا على المثقفين فلم يتخلف عن الركب وساهم بقسطه هو ايضا.
كانت الفترة التي احتل فيها المحور البلاد التونسية بالنسبة لمعظم الناس بدون منازع عهد حرية ولا مبالاة وقد استفادوا منه كثيرا.
بيد ان موقف الزعماء الوطنيين من المحور كانت تتسم بالحذر في مجملها . وهنا ينبغي ان نسجل ان خطر هيمنة ايطالية على البلاد التونسية كان خطرا حقيقيا ولكن كان بعض الشبان مثل تلك المجموعة المنضوية حول جريدة « الشعب » يعلنون بكل وضوح عن صداقتهم للالمان وعن عدائهم السافر الشديد للفرنسيين فان الاغلبية اتخذت مواقف متحفظة قريبة من مواقف البلاط وكان بورقيبة اكثر تحفظا : فقد اطلق الالمان سراحه وناشده الايطاليون ان يدخل في زمرتهم فعمل على ان لا ينحاز الى هذا الشق او الى ذلك وبادر منذ دخول الحلفاء الى تونس في اوائل شهر ماي 1943 الى اتخاذ موقف مساعد لهم وذلك ما جعله يفلت من التتبعات .
ودخل الحلفاء تونس يوم 7 ماي في جو مشحون بالارتياب او بمرارة التسليم العام بالامر الواقع . ذلك ان البلاد قد عادت من جديد لترزح تحت نير السلطات الاستعمارية الفرنسية .
فبادرت هذه السلطات بخلع المنصف باي ، وما لبثت ان عوضته بآخر طيّع هو الأمين باي . وشنت حملة واسعة ضد المتعاملين مع المحور . Collaborateurs
لن نسهب في الحديث عن الحالة الغامضة المضطربة التي سادت حتى نهاية الحرب ولكن لنلاحظ بايجاز ان تلك الفترة قد شهدت الاعتراف بالحزب الشيوعي التونسي وبنشاطه الدعائي وظهور حركة تدعو الى عودة المنصف باي كما شهدت اعادة تنظيم الحزب الدستوري الجديد وظهوره بمظهر يتسم بالحذر ولنلاحظ ايضا الموقف المتردد الغامض الذي اتخذه القنصلان البريطاني والامريكي المعتمدان بتونس (وخاصة قنصل الولايات المتحدة دولتل H. Doolittle) والاتصالات

التي اجراها معهما الوطنيون التونسيون وكانوا ينتظرون الكثير من الذين انشأوا الميثاق الاطلسي Charte de l'Atlantique الذي ينادي بحق الشعوب في تقرير مصيرها .

5) بعد الحرب : المسيرة نحو الاستقلال (1945 ـ 1956 م.)

كانت سنة 1945 وبانتصار الحلفاء فاتحة عهد جديد في العالم كما في تونس ، عهد يتميز بتطور سياسي اكثر سرعة في اتجاه تقهقر العالم الاوروبي القديم وامبرياليته الاستعمارية ، فقد اعلن بكل خشوع عن مبادىء جديدة منها حق الشعوب في تقرير مصيرها ، واحترام حقوق الانسان فاعتنق الوطنيون في كل البلدان المستعمرة هذه المبادىء للدفاع عن قضاياهم وللمطالبة بالاستقلال فاحرزوا عليه في الشرق الاوسط (سوريا ولبنان) وفي الهند واندونيسيا وغيرها من البلدان . وكانت البلاد التونسية تبدو مؤهلة لذلك جديرة به من بين جملة البلدان المستعمرة والطامحة الى استقلالها نظرا لتجذر الشعور الوطني ، ولتعبئة قطاعات واسعة من المجتمع بفضل ذلك الشعور ، وبمجموعة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية بيد ان الكفاح طال اكثر مما كان متوقعا وصاحبته ملابسات مختلفة منها تعدد التشكيلات السياسية واشكال العمل من 1945 الى 1948 تقريبا ثم هيمنة الحزب الدستوري الجديد على الساحة السياسية ثم المفاوضات التونسية الفرنسية الاولى (1949 ـ 1951) ثم الاصطدام (بداية من سنة 1952 الى آخر جويلية 1954) ثم اخيرا الحصول على الاستقلال بالتفاوض (1954 ـ 20 مارس 1956)

أ ـ الحركة الوطنية وحيويتها ذات الوجوه المتعددة 1945ـ1948 م.

كانت البلاد التونسية عند انتهاء الحرب العالمية الثانية تضم العديد من التشكيلات السياسية ومن القوى التي لا يمكن تحديدها ، والتي لئن كان غرضها الاستقلال الذاتي ، او تحرير البلاد فانها كانت تتقدم بهذا الطلب الخاص او ذاك .

فعلاوة على الحزب الدستوري الجديد الذي بقي اهم تشكيلة بفضل

مـا لـه من فـروع داخل البـلاد و بفضل مـاضيـه كان ثمة ايضا الحزب الدستوري القديـم الذي كـان يضم تحت لوائه اصوات البورجوازية التقليدية ، وكذلك الحزب الشيوعي الذي كان يتوجه الى الطبقات الكادحة (الفرنسية منها والتونسية) وكان يبذل ما في وسعه لتونسة اطاراته واتباعه واشياعه وهنالك أيضا الشبيبة الزيتونية (تضم طلبة الجامع الأعظم وكذلك القدامى منهم) كانت حركة منظمة ونشيطة خاصة بفضل حماس الفاضل بن عاشور خاصة بالاضافة الى التجمعات او الحركات الظرفية ، ثمرة الظروف والملابسات : مثل العمليات الحربية التي وقعت في الجنوب والساحل ومثل التيار المطالب بعودة المنصف باي (وكانت له شعبية كبيرة داخل البلاد) والتظاهرات المساندة لعروبة فلسيطن الخ...

ولقد استأثرت هاتان الحركتان بصفة خاصةبقسم لا باس به من الطاقات الشعبية وشغلتها عن المطلب السياسي الحقيقي الذي هو المناداة باستقلال البلاد.

اما اشكال العمل فكانت مختلفة فالاحزاب السياسية كانت تلجأ الى طرق العمل التقليدية من مقالات صحفية ولوائح واجتماعات واضرابات ومظاهرات عامة. وقد وحدت التشكيلات السياسية جهودها بين شهري فيفري وماي من سنة 1945 ثم خلال صيف 1946 قصد تقديم برنامج موحد ودعمته بسلسلة من الاعمال.

اما الحركة النقابية التونسية فتلقت دفعا قويا بفضل الظروف (وقد تمثلت في ارتفاع مشط في الاسعار خاصة) وبفضل عمل فرحات حشاد وقد اسس يوم 20 جانفي 1946 « الاتحاد العام التونسي للشغل U.G.T.T. » وكانت نقابة تونسية من حيث العناصر البشرية المكونة لها. وكانت، شانها في ذلك شان « جامعة عموم العملة التونسيين » التي اسسها محمد علي، تربط المطالب الاجتماعية بالقضية الوطنية ربطا متينا. كما تعاونت مع الحزب الدستوري الجديد تعاونا وثيقا. وكانت لها اضراباتها (4 اوت 1947 في كل انحاء البلاد

التونسية) وشهداؤها (في اليوم الموالي بصفاقس) وهكذا فان قدرتها الدفاعية وتجذرها في الواقع القومي ضمنت لها انضمام الجماهير العمالية التونسية على حساب « جامعة عموم العملة التونسيين » الموالية للشيوعية والتي اصبحت تدعى الاتحاد النقابي للعمال التونسيين (.U.S.T.T) في اكتوبر من سنة 1946 .

وارتفع عدد المنخرطين في الاتحاد العام (UGTT) من عشرين الف في سنة 1946 الى حوالي مائة الف سنة 1950 : ويعني ذلك ان دوره في حياة البلاد وفي الكفاح الوطني ما انفك يتأكـــد .

اما حركة الفلاقة (وكانت نشأت في الجنوب والساحل منذ نهاية الحرب فكانت ذات مشرب آخر وطبيعة اخرى فقد ضمت عناصر متعددة النزعات ، وغير خاضعة في معظم الاحيان للاحزاب السياسية وبالذات الحزب الدستوري الجديد ، فمنهم من التحق بالاحراش بعد ان استرجعت السلط الاستعمارية نفوذها على البلاد في ماي 1943 وذلك هروبا من التتبعات العدلية بتهمة التعاون مع جيوش المحور او بتهمة العصيان العسكري . وكانت هذه حال « علي الصيد » قائد المقاومين من المرازيق في منطقة نفزاوة في 1943 ـ 1944 فقد شكل عصابة بلغ عددها في وقت ما ثمانين مناضلا وكبدت القوات الفرنسية خسائر ملموسة في مناسبات عدة قبل ان يتم القضاء عليها وتشريد قائدها ، فبقي الرجل منفردا متسترا من 1944 حتى سنة 1952 واندلاع المقاومة المسلحة المنظمة فالتحق بها واثراها بتجربته الطويلة والفريدة . وكان « الفلاقة » ايضا ـ في معظمهم ـ من الشبان الريفيين المعوزين ومن اولئك الذين حكمت عليهم الاوضاع الاستعمارية (والحركة الديموغرافية) بالبطالة وضنك العيش حاضرا ومستقبلا وكان هذا شان « فلاقـة » زرمدين ـ في طرف من اطراف الساحل الكثيف ـ الذين قاوموا السلط الفرنسية بالسلاح طيلة اكثر من ثلاث سنين (من 1945 الى شهر افريل 1948) .

الا ان اسلوب هؤلاء « الفلاقة » العنيف وتصرفاتهم « الفوضوية » في نظر

سكان المدن وحتى القرى - اقضت مضجع هذا القسم من المجتمع وأحجلت السياسيين المنتمين الى ذلك الوسط (المدني والقروي) بالاضافة الى كونهم قد اعتبروا النضال المسلح - عملا سابقا لاوانه . ولهذه الاسباب لم تجد حركة « الفلاقة » مساعدة ناجعة فامكن لقوات الامن الاستعمارية ان تقضي عليها بكل سهولة في الجنوب سنة 1944 وفي الساحل سنة 1948 .

وكان يوجد شكل آخر من اشكال العمل ويتمثل في النشاط الكثيف الذي قام به الزعماء الوطنيون في منفاهم بالخارج . وكان ضبمنهم لاجئو الحرب (الحبيب ثامر) وبورقيبة وقد غادر هؤلاء البلاد التونسية خفية الى الخارج وذلك في نهاية شهر مارس 1945 بعيد تاسيس « الجامعة العربية » فباشر النشاط الخارجي اولا في المشرق الغربي حيث تكونت « لجنة تحريرالمغرب العربي » يراسها الزعيم المغربي الامير عبد الكريم الخطابي في اواخر سنة 1947 وكذلك في امريكا في نهاية سنة 1946 ، وبداية 1947 لدى منظمة الامم المتحدة .

لقد نشات بتونس بعد الحرب حركة متعددة الاشكال وتواصلت بلا هوادة نحو اربع سنوات ولكنها كانت محدودة النتائج اذ لم تتخل فرنسا عن هيمنتها السياسية واقتصرت على بعض الاصلاحات الجزئية منها الزيادة في عدد الوزراء والموظفين التونسيين (الا ان المسؤوليات الهامة لم تعهد الا لأعيان من المخزن شهروا بانهم من بني وي وي Béni oui oui) ومنها فتح ابواب المدارس امام عدد اكبر من التلاميذ المسلمين.

ب – عودة الحزب الدستوري الجديد إلى الهيمنة والمفاوضات التونسية الفرنسية الأولى (1949 - 1951 م.)

ان الحزب الدستوري الجديد ، بعد ما سلط عليه من قمع سنة 1938 والسنوات التالية ، وبعد ان صار لزاما عليه ان يسلك مسلكا شديد الحذر بعد ان وضعت السلط الفرنسية قبضتها على البلاد من جديد بعد الحرب العالمية الثانية ، لم يفرض نفسه في تلك الآونه دفعة واحدة بل وجب عليه ان يتحالف مع قوى اخرى وان يقرأ حسابا لبعض

الحركات الشعبية مثل الحركة الداعية الى رجوع المنصف باي او الحركة المساندة لفلسطين .

ولكن الحزب الدستوري في ذلك التاريخ كان قد استرجع بعد هيمنته على الحياة السياسية بالبلاد ثم ان عودة رئيسه في شهر سبتمبر سنة 1949 لم تزده الا بعد صدى وعمق تأثير .

وحوالي سنة 1950 كانت خلاياه تمتد كالشبكة على كامل البلاد حتى على تلك المناطق التي كان لم يصلها تأثيره بعد انذاك مثل الشمال والغرب . وكانت اجتماعاته تضم آلافا من الاشخاص . اخيرا كانت المنظمات الوطنية مثل « الاتحاد العام التونسي للشغل » الذي كان يضم قرابة المائة الف منخرط و « الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة » (ويعد خمسين الف منخرط) « والاتحاد النسائي » وغيرها من المنظمات تعاضد عمله بكل قوة وتبسط من نفوذه لدى قطاعات نوعية من السكان الى حدّ ان بلاط الباي نفسه أصبح يساند بعض مطالب الدستوريين .

ولذلك امكن للحزب الحر الدستوري الجديد ان ينتصب سنة 1950 مخاطبا كفئا لفرنسا وان يطالب باجراء مفاوضات الغرض منها تحقيق مطامح التونسيين .

ومنذ ربيع سنة 1950 بدت الحكومة الفرنسية وكأنها تشاطره هذه الاراء : ففي العاشر من جوان من نفس السنة كان وزير الشؤون الخارجية نفسه يتحدث عن الاستقلال باعتباره خاتمة تطور البلاد التونسية . وفي شهر اوت ، تكونت وزارة تونسية جديدة يرأسها محمد شنيق وكان ضمن اعضائها صالح بن يوسف الكاتب العام للحزب الدستوري الجديد . وكان من المقرر ان تتفاوض في « التحويرات التي ينبغي ان تقود البلاد التونسية على مراحل نحو الاستقلال الذاتي . ولكن تحالف بعض المصالح في فرنسا كما في تونس ، ضد مجرى السياسة الفرنسية الجديدة كان قويا جدا ، وكانت الظروف العالمية تتميز بتفاقم امر الحرب الباردة (ممثلة في اندلاع حرب كوريا واشتداد

حدة المعارك في الهند الصينية) ولم تكــن هي الاخــرى مواتية .
وفي تونس نفسها كان الجو العام مشحونا بالتوتر بسبب سوء نية كبار الموظفين الفرنسيين :
فبمناسبة اضراب العمال الفلاحيين في ضيعات النفيضة يوم 20 نوفمبر 1950 مثلا ، لم يتردد المسؤولون الفرنسيون امام اراقة الدماء .
ولكن المفاوضات ظلّت متواصلة حتى افضت الى اصلاحات 8 فيفري 1951 المخيبة للآمال : فقد اسندت الى التونسيين نصيبا اوفر في الوزارات والادارات ولكنها كانت تبقى دائما على المراقبة الفرنسية وترفض حق المواطنين في اختيار من يمثلهم تمثيلا حقيقيا وتنكر عليهم حق الاضطلاع بالمسؤوليات فلم يقلّ ذلك من عزم بورقيبة فاعلن انه ينبغي دخول المعركة استعدادا للمرحلة الثانية .
اما الامين باي فقد تبنى هو ايضا مطالب الوطنيين وذلك يوم 15 ماي 1951 : وهي اقامة سلطة تنفيذية وبرلمان تونسيين ، فاعلنت فرنسا معارضتها او انها على الاصح وضعت شرطا مسبقا لادخال هذه الاصلاحات الجديدة ومفاده ان يقبل التونسيون تمثيل المعمرين الفرنسيين ضمن المنظمات المنتخبة . وهو ما كان سيؤول الى تكريس مبدا السياسة المزدوجة التي رفضها الوطنيون .
وبعد مزايدات شتى بلغت مذكرة 15 ديسمبر 1951 التي ارسلت بها مصالح الوزارة الخارجية الفرنسية الى الوزير شنيق ، تؤكد تاكيدا صارما على ذلك المبدأ مبدأ السياسة المزدوجة ، كما تؤكد على ابقاء نوع من المراقبة الفرنسية على الحياة السياسية بالبلاد وكان ذلك ايذانا بانقطاع المفاوضات وسرعان ما استخلص بورقيبة ما ينبغي من النتائج فاعلن : « أن صفحة من تاريخ تونس قد طويت واخرى قد بدأت . ان جواب السيد شومان يفتح عهدا من القمع والمقاومة بما لا بد ان يصحبه من الدموع والاحزان والاحقاد » .
واعطى الاشارة لبداية كفاح لا هوادة فيه .

ج – الاصطدام (بداية 1952 ـ 31 جويلية 1954)

لنهتم اولا بالسياسة الفرنسية لقد اعلن عنها المقيم العام الجديد جان دو هوتكلوك J. DE HAUTECLOQUE بحلوله بتونس على متن باخرة حربية في عملية استعراض كبير للجيش الفرنسي وبتصميمه على التصدي بالقوة لكل مقاومة وطنية فاوقف مئات من الوطنيين من ذوي النزعات المتعددة ومن الشيوعيين . ثم اوقف بورقيبة في 18 جانفي 1952 فكان من نتائجه ان اصبحت البلاد في حالة من الغليان بررت زيادة عمليات القمع وضرب المراقبة المشددة على المراكز السكنية . تليها حملات بوليسية واعتقالات عشوائية واهانات للمواطنين . ووقعت حملات قمع تمشيط Ratissages ضد بعض المناطق المعروفة بوطنيتها مثل الوطن القبلي والساحل في نهاية شهر جانفي 1952 وبداية فيفري وقد زاد من بشاعة القمع الرسمي ارهاب مضاد قامت به « اليد الحمراء » وهي منظمة تتكون في معظمها من رجال البوليس ، فكانت تخطط على هامش كل اطار شرعي اختطاف الزعماء الوطنيين واعتقالهم وهي اعمال لم تجد العدالة الفرنسية ضدها شيئا من الحجج او البراهين كذلك أستشهد فرحات حشاد مؤسّس « الاتحاد العام التونسي للشغل » وقلبه النابض المسير يوم 5 ديسمبر 1952 .
اما الاصلاحات التي حاول تطبيقها دي هوتكلوك ثم فوازار VOIZARD (بعد ان عيّن مقيما عاما في سبتمبر من سنة 1953) فانها قد فشلت فشلا ذريعا على اثر معارضة الوطنيين لها . ان عهد الاصلاحات الجزئية قد ولى بدون رجعة .
اما المقاومة التونسية ، التي هيّأ لها الحزب الدستوري الجديد منذ امد بعيد ، فقد اتخذت اشكالا عديدة ، فقد بادر رجالها الى شن حملة اعلامية ودعائية واسعة النطاق لدى المنظمات العالمية (مثل الجمعية العامة للامم المتحدة ، والبلدان العربية والاوروبية) .
اما في داخل البلاد فان كل نشاط سياسي اصبح بطبيعة الحال سريا ففي المدن كانت الاضطرابات والمظاهرات المتعددة تدور في جو مشحون بالتوتر وكثيرا ما كانت تفضي الى تدخل قوات الامن والى

اراقة الدماء وكانت فرق من المناضلين من ذوي العزم والتصميم والعاملين في نطاق شبكات تضرب فيعيد تشكيلها متطوعون اخرون لتقوم بعمليات مشهودة تبقي التوتر والضغط مساطين على السلط الفرنسية خاصة في المدن .

اما في البوادي فان الكفاح المسلح انتظم بعد ذلك وعاد الى سالف العهد ، عهد الاحراش الذي بدا اثر نهاية الحرب والذي وقعت تصفيته في ذلك الوقت تصفية لا رحمة فيها .

وقد كان المنخرطون خليطا من « الفلاقة » السابقين ومن المناضلين المستميتين الذين كونهم الحزب الدستوري الجديد ومن الشبان الذين يتحرقون شوقا للعمل المباشر ، ومن الاهالي الذين استُذِلُّوا او قاسوا الويلات ومن الفلاحين الذين افتقروا وباختصار من كل ما خلقه القمع والاستعمار من احقاد دفينة في الصدور ومن بؤس وشقاء .

وتمكن الحزب واطاراته المحلية بحسب طاقتهم وعبر سلسلة من العراقيل والمصاعب الجمة من ان يمدوا المقاومين بالعون والتوجيهات وذلك بصفة مستمرة واما الاهالي فاتموا الباقي بتعاطفهم الشديد . ورغم بساطة اسلحتهم وتحضيراتهم العسكرية فان المقاومة المسلحة قد دامت بل وتدعمت الى شهر نوفمبر 1954 .

وهكذا فعندما حل ربيع 1954 ، ودقت ساعة ديان بيان فو Dien Bien Phu كانت الحالة السياسية بتونس في مأزق (فقد كان الفراغ يحيط بالمقيم العام فوازار وبوزرائه المزعومين) وكان عدم الطمأنينة في كل مكان .

وفي يوم 18 من شهر جوان اخذ **منداس فرانس** Mendès-France بمقاليد الحكم ليتفاوض حول اقرار السلام بالهند الصينية ولم يكن يستطيع ان يفعل غير ذلك بالبلاد التونسية . ففي 31 جويلية 1954 وصل الى قرطاج واعلن فيها بكل خشوع وجد عن استقلال البلاد الداخلي .

د – الاستقلال بواسطة المفاوضات
(30 جويلية 1954 ـ 20 مارس 1956)

سرعان ما شكلت وزارة المفاوضات : فكانت تحتوي على ثلاثة اعضاء من الحزب الدستوري الجديد (خاصة المنجي سليم) ومن شخصيات مستقلة مختلفة وكان بورقيبة يحتل الخلفية وغالبا ما كانت تدخلاته حاسمة .

وبدت المفاوضات عسيرة ، وزاد في تعقيدها اندلاع الثورة الجزائرية يوم 1 نوفمبر 1954 وتدهور الحالة بالمغرب فظهرت حكومة منداس فرانس ـ وقد زاد التهجم عليها ـ بمظهر المفاوض المتصلب حول عديد من النقاط (خاصة حقوق الفرنسيين المقيمين بتونس ومشكلة الامن). فتولى **ادقار فور** Edgar FAURE الذي خلفه في منصبه في شهر فيفري 1955 انهاء المرحلة الاولى من المفاوضات والتوقيع على المعاهدات التونسية الفرنسية في 3 جوان 1955 . وكانت تنص على نقل اهم السلطات الى التونسيين باستثناء الامن الخارجي والتمثيل الدبلوماسي فقد كانت اذن تكرس الاستقلال الداخلي .

وعاد بورقيبة الى تونس يوم 1 جوان 1955 فاستقبلته الجموع الغفيرة بحماس فياض . اما الحزب الدستوري الجديد فكان يجني ثمار عشرين سنة من الكفاح وكان يبدو سيد الموقف ، ولكن سرعان ما مزقه انفصام كبير احدثه امينه العام صالح بن يوسف برفضه المعاهدات الفرنسية التونسية والاستقلال الداخلي ولمناداته بمواصلة الكفاح جنبا الى جنب مع بلدان المغرب العربي الاخرى ، ورغم ان مؤتمر الحزب الدستوري الجديد المنعقد بصفاقس يوم 15 نوفمبر 1955 قد أيّد بورقيبة وسياسته الواقعية تاييدا مطلقا ، فقد قامت معركة عنيفة لا هوادة فيها بين شق « البورقيبيين » وشق « اليوسفيين » .

وقد دفعت هذه المعركة بالحزب الدستوري الجديد بلا منازع الى ان يصلب من مواقفه ازاء فرنسا وان يعود الى مطالبته وهذه « ثابتة » من الثوابت في سياسة بورقيبة وتتمثل في أنه يعتمد على تنازلات

الخصم ليطالب بمزيد منها .
ثم ان الظروف هي الاخرى ستساعد التونسيين فان فرنسا بخوضها حرب الجزائر الشديدة ستفضل القيام ببعض التنازلات في المغرب ، وكان الوضع قد تدهور فجأة خلال صيف سنة 1955 فوعدت السلطان باستقلال بلاده . ثم ان الانتخابات الفرنسية التي جرت في جانفي 1956 والتي فازت فيها احزاب اليسار لم تزد هذه السياسة الا تاكيدا .
فاغتنم التونسيون الفرصة وطالبوا بنفس الاستقلال الذي منح للمغرب وجرت مفاوضات على هذا الاساس في نهاية شهر فيفري ، فافضت بسرعة الى التوقيع على بروتوكول 20 مارس 1956 الذي ينص على الغاء معاهدة 12 ماي 1881 ويعلن عن استقلال البلاد التونسية .
ثم ان البايات (وكانوا صوريين منذ 1881) قد ابعدوا بعد بضعة اشهر واعلن عن قيام (النظام الجمهوري يوم 25 جويلية 1957) واخذ بورقيبة ورفقاؤه بيدهم رسميا مقاليد الحكم بالبلاد ومصيرها .

الخاتمة

ان ما يشد اليه انتباه الملاحظ في تاريخ الحركة الوطنية التونسية ، هو طابعه المعتدل الملتزم بالشرعية : وهو ما مكنه من أن يصل الى مبتغاه باقل التكاليف (بالمقارنة مع الجزائر القريبة) ، ان السبب في ذلك يكمن في انه قد تولى قيادته مثقفون ينتمون في معظمهم الى المجتمعات البلدية (المدن) او الى القرى والى الطبقات المتوسطة وهو ما يوافق « البورجوازية » الاوروبية الصغرى .

فهم ينتمون جميعهم او جلهم الى ذلك القسم المتفتح المتقدم من البلاد التونسية فهو الذي جر تونس « العميقة » الى كفاح تطور فصار وطنيا ثم فرض نفسه عليها في قيادة مجموع البلاد عندما دقت ساعة الاستقلال .

فهل سينجح في ازالة الفوارق وتذليل التفاوت غير العادل بين العالمين ؟ ان هذا السؤال يطرح مشكلة التخلف برمتها وهو سؤال لا يزال رغم عديد من الانجازات مطروحا الى يومنا هذا .

جداول الأحداث بالبلاد التونسيّة

من العصر الحجري القديم الى سنة 1956 م

I ـ عصر ما قبل التاريخ

<table dir="rtl">
<tr><td>العصر الحجري القديم
(ما بين 500.000 وحوالي 8.000 ق. م.)</td><td>بقايا بشرية بشمال افريقيا
ـ العصر الاشولي (ما بين 300.000 و 200.000 ق. م.)
الآلات الحجرية ذات الوجهين
ـ العصر الموستيري : حضارة الشظايا الحجرية
ـ المرحلة الاخيرة من العصرالحجري القديم (من 30.000 تقريبا الى 8.000 ق. م.) : ظهور « الرجـــل العـارف » Homo sapiens
ـ حضارة الشفرات والآلات الحجرية الدقيقية
ـ الحضارة العتيرية (آلات مذنّبة) .
في الجهة الجنوبية الشرقية من شمال افريقيا</td></tr>
<tr><td>العصر الحجري المتوسط
(ما بين 8000 والألف الرابعة ق. م.)</td><td>تطور الحضارات الشرقية (ما بين مصر وبلاد التركستان) تطورا سريعا : اكتشاف النشاط الفلاحي والرعوي .
ـ الحضارة القفصية بالجهة الشرقية من شمال افريقيا : حضارة « الرماديات »</td></tr>
<tr><td>العصر الحجري الحديث
(الألف الرابعة والثالثة والثانية ق. م.)</td><td>ـ ازدهار الحضارات الشرقية وتأثيرها على الحضارة القفصية بشمال افريقيا</td></tr>
</table>

II_العهد القديم : قرطاج البونيقية

التاريخ	الأحداث	المجتمع	المحيط التاريخي
حوالي 1100 قبل الميلاد	ظهور الفنيقيين على السواحل التونسية	دخول المناطق الشمال افريقية المتأثرة بهم طور التاريـــخ	هيمنة الفنيقيين على تجارة البحر الأبيض المتوسط
814 ق. م. القرن السّابع ق. م.	تأسيس مدينة قرطاج نشاط التجارة البحرية القرطاجنية		ـ تأسيس مدينة روما (750ق.م. ـ اليونانيون في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط (حوالـــي 750 ق. م.)
القرن السادس ق. م.	ـ التوسع البحري القرطاجني في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط ـ الامبريالية البحرية القرطاجنية وصراعها مع اليونان	ـ هيمنة التجار الكبار وذوي المصالح البحرية داخل المجتمع القرطاجني	ـ تقهقر البلاد الفنيقية ـ الأم ـ نمو الامبريالية اليونانية في البحر الابيض المتوسط
القرن الخامس ق. م.	ـ الصعوبات الخارجية (لا سيما بصقلية) تملي على قرطاج سياسة جديدة : احتلال تراب البلاد التونسية الحالية وتكوين امبراطورية قرطاجنية بريّة ـ امتداد نشاط قرطاج التجاري الى سواحل افريقيا واروبا الأطلسية (رحلات حنون وعملقون)	ـ دور عائلة ماغون السياسي والعسكري بقرطاج ـ تأثير التوسع القاري على حياة قرطاج : * نمو طبقة ملاكين كبار وتداخل مصالحهم بالمصالح البحرية * تأصل القرطاجنيين بالبلاد التونسية * الاصلاحات السياسية والدينية بقرطاج : سياسة التصلب والتقشف	ـ توطيد الامبريالية اليونانية بالبحر الأبيض المتوسط وانتصاراتها على اعدائها من فرس وبونيقيين .

		- محافظة قرطاج على الحضارة والتقاليد الفنيقية المتلاشية في مهدها الشرقي .	
القرن الرابع وبداية قرن الثالث ق. م.	- تواصل الحروب البونيقية - اليونانية في صقلية - الانتفاضات الداخلية الناتجة عن مطامح العظماء (حنون الاكبر : حوالي منتصف القرن الرابع) وعن ثورات المحرومين . - التحالف السياسي والاقتصادي مع ملك مصر الاغريقي بطليموس (بداية القرن الثالث) وتنشيطه للتجارة القرطاجنية . - التوسّع الترابي البونيقي بصقلية واصطدامه بالرومان (قبيل 264 ق. م.)	- استفحال التناقض والصراع بين الأقلية المحتكرة للحكم والثروة والعناصر الكادحة (اللوبيين) - انتشار التجار القرطاجنيين في العالم الشرقي الذي وحدته فتوحات اسكندر المقدوني (في اواخر القرن الرابع وفي القرن الثالث ق. م.) - انفتاح قرطاج للتأثيرات الحضرية الاغريقية والمصرية .	أزمات العالم الإغريقي السياسية واستقلال دويلات اليونان بصقلية (سرقسطة ...) في النصف الاول من القرن الرابع ق. م. - بروز قوة ملوك مقدونيا ببلاد اليونان (في النصف الثاني من القرن الرابع) وملحمة اسكندر المقدوني (336 - 323 ق. م.) - نشأة الممالك الهلينستية بالشرق (في اواخر القرن الرابع وفي القرن الثالث ق. م.)
264 - 241 ق. م.	الحرب البونيقية - الرومانية الاولى وانتهاؤها بهزيمة قرطاج		-بداية التوسع الروماني خارج شبه الجزيرة الايطالية
240 - 237 ق. م.	- ثورة المرتزقة (والكادحين اللوبيين) على قرطاج : حرب طبقية - انتصار عبد ملقرط البرقي على الثوار .		

ما بين 237 و218 ق.م.	ـ تجربة آل برقة « الملكية » باسبانيا ونهضة قرطاج الاقتصادية من جديد .	التأثيرات اليونانية بقرطاج	ـ الملوكيات الهلينستية بالشرق ـ الدولة الرومانية بايطاليا تصبح اقوى مما كانت عليه .
218 ـ 201 ق م. 202 ق. م. 201 ق. م.	ـ الحرب البونقية الثانية : ملحمة حنبعل بايطاليا انهزام القرطاجنيين بزامة معاهدة الصلح القاسية التي فرضت عليهم		ـ ظهور مسينيسا رئيس قبائل النوميد في المغرب الاوسط .
النصف الاول من القرن الثاني ق.م.	ـ 197 : مغادرة حنبعل لقرطاج ـ تعديات مسينيسا على التراب القرطاجني بمواطأة رومـــــا	التأثيرات اليونانية بقرطاج الحضارة البونيقية ـ اليونانية تغزو ميدان البرابرة النوميديين	ـ التوسع الامبريالي الروماني بالبحر الابيض المتوسط . ـ التوسع النوميدي (مسينيسا) بالمغرب الاوسط والشرقي .
149 ـ 146 ق. م. 146 ق. م.	ـ الحرب البونيقية الثالثة بين قرطاج وروما . ـ تدمير قرطاج وجعل ممالكها ملكا للشعب الروماني.	ـ بقاء الحضارة البونيقية متجذرة في القسم الشرقي من شمال افريقيا ولا سيما في المدن والمناطق التابعة لها .	ـ محق المدينة اليونانية كورانت . ـ انتصار الامبريالية الرومانية في ميدان البحر الابيض المتوسط (في افريقيا وفي بلاد اليونان) .

III_افريقية في العهد الروماني

التاريخ	الأحداث	المجتمع	المحيط التاريخي
من 146 الى منتصف القرن الاول قبل المسيح 111 _ 105	ـ سياسة الاستغلال الروماني للمقاطعة الافريقية : سياسة سلبية غير منشطة للحياة الاقتصادية حرب يوغرطا	ـ بقاء الحضارة البونيقية في المدن وفي المناطق التابعة لها وتسرّب التأثيرات اللاتينية داخل البلاد الافريقية الشمالية	الامبرالية الرومانية الحروب الاهلية الرومانية .
49 _ 46 ق. م. 46 _ 45 ق. م.	ـ حرب يوليوس قيصر ضد اعدائه لا سيما في افريقيا وانتصاره في نهاية الامر . ـ يوليوس قيصر يعيد تنظيم المقاطعة الافريقية)	ـ الشروع في تعمير افريقيا بعناصر ايطالية وفي سياسة استثمار محكمة لخيراتها .	انتصار يوليوس قيصر على اعدائه ولا سيما على بونبيوس وأنصاره . 48 _ 44 ق. م: حكم يوليوس قيصر الدكتاتوري بروما .
29 ق.م. / 14 م.	ـ انجازات اغسطس بافريقيا * انشاء عدة مستعمرات رومانية اهمها : تاسيس قرطاج من جديد (كولونيا جوليا كرطاقو) ـ * تشجيع استثمار المقاطعة لفائدة كبار روما * اقصاء القبائل البربرية عن المناطق الخصبة .		انتصاب النظام الامبراطوري بروما لفائدة اغسطس (27 ق.م._14 م) ازدهار الامبراطورية الرومانية:« السلم الرومانية » Pax romana
17 _ 24 م. 24 _ 42 م.	ثورة تكفريناس Tacfarinas احتلال بلاد شمال افريقيا بأسرها	ـ بداية « رومنة » المقاطعة الرومانية الافريقية	

	ـ التنظيم الاداري والعسكري الجديد : جعل افريقيا ممولا لخزائن أعيان روما ولشعبها	ـ بداية النهضة الاقتصادية « الاستعمارية »	
نهاية القرن الاول والقرن الثاني بعد الميلاد	ـ ازدهار افريقيا « الرومانية »	« رومنة » النخب الافريقية وازدهارها المادي والسياسي .	ـ عهد الانطونيين Antonin (117 ـ 192)
نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث	ـ انتصاب آل سيفار الافارقة Sévères على عرش روما (193 ـ 235)	ـ الازدهار المادي للمقاطعة الافريقية في كنف الامبراطورية الرومانية . ـ استفحال ظاهرة « رومنة » النخب الافريقية ومدنها . ـ ظهور الديانة المسيحية وتعاظمها بافريقيا (بداية من نهاية القرن الثاني م.) .	ـ 193 ـ 235:دولة « السيفار» بروما وبداية عصر التقهقر بها (لا بافريقيا) .
نهاية القرن الثالث والقرنان الرابع والخامس	ـ بلوغ الازمة الرومانية المقاطعة الافريقية . ـ 313 : انتصار المسيحية الرسمي . ـ تقلص المقاطعة الرومانية امام زحف البرابرة الاجانب على الحضارة الرومانية .	ـ الانزلاق نحو اقتصاد فلاحي ونظام اجتماعي « اقطاعي » .	ـ زحف « البربار» على الامبراطورية الرومانية واستفحال الازمة داخلها ـ انقسامها الى امبراطورية شرقية (القسطنطينية) وامبراطورية غربية (عاصمتها روما) بداية من اواخر القرن الثالث .

439 ـ 533	ـ حكم الفندال بافريقيا (الملك قنسريك 439 ـ 477)	ـ مقاومة النخب الرومانية واطارات الكنيسة الكاتوليكية للفندال .	ـ استفحال الازمة بالامبراطورية الرومانية الغربية حتى نهاية عهدها (476) .
533 ـ منتصف القرن السابع	ـ افريقيا البيزنطية ـ تعاظم قوة المجموعات القبلية البربرية بافريقيا ومناهضتها للحكم البيزنطي (ثورات البرابرة في القرن السادس) . ـ انقسام البلاد الى ميدانين من الناحية السياسية والحضارية : ـ الميدان البيزنطي والميدان البربري .	ـ محاولة احياء الهياكل السياسية والاجتماعية والحضارية الرومانية ـ نشأة اوضاع جديدة في الواقع وعدم استقرار . ـ الخلافات الدينية البيزنطية	ـ ازدهار الامبراطورية البيزنطية بالشرق (عاصمتها القسطنطينية) في القرن السادس . **622:الهجرة المحمدية** ـ الفتح الاسلامي في الشرق وبداية توجهه نحو الغرب .
منتصف القرن السابع	ظهور الجيوش الاسلامية الفاتحة بافريقية .	ـ الازمات الاجتماعية والدينية في افريقيا البيزنطية واستقلال القبائل البربرية .	

IV_الفتح الاسلامي

التاريخ	الأحداث	المجتمع	المحيط التاريخي
670	تاسيس القيروان على يد عقبة بن نافع		ـ الدولة الاموية في عهد القوة والنمو (بداية من 660) .
نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن	المقاومة البربرية للفتح الاسلامي ـ تدمير قرطاج (698) . ـ قادة الفتح الاسلامي : حسان بن النعمان وموسى بن نصير وانتصارهما النهائي على المقاومة المسلحة البيزنطية والبربرية .	ـ البرابرة يعتنقون الاسلام بسهولة ثم يرتدون ـ انتصار الديانة الاسلامية بافريقيا .	* معاوية (660 ـ 680) * عبد الملك (685 ـ 705)
711	ـ فتـــح الانـــدلس .		
القرن الثامن	ـ الولاية الافريقية	ـ ظهور الخوارج بافريقيا ومقاومتهم للهيمنة العربية والسنية . ـ تقدم حركة تعريب المدن وبعض المناطق المحدودة .	ـ انتقال الخلافة من الامويين الى العباسيين (750) وعاصمتها من دمشق الى بغداد ـ انزلاق مركز ثقل الامبراطورية الاسلامية نحو

V ـ الدولة الاغلبية (800 ـ 910)

التاريخ	الأحداث	المجتمع	المحيط التاريخي
800	ـ ولاية ابراهيم بن الاغلب واحرازه على الاستقلال الـذاتي .	ـ ازدهار الحضارة العربية بافريقيا . ـ ازدهار الحياة الاقتصادية	ـ هارون الرشيد في بغداد (786 ـ 813) . ـ كارلوس ماقنوس Charlemagne في اروبا المسيحية (800 ـ 814) . ـ تمركز « الامويين » بالاندلس وبداية ازدهار حضارتهم . ـ دويلات الخوارج بالمغرب الاوسط . ـ الادارسة بالمغرب الاقصى (تاسيس فاس حوالي 800) .
800 ـ 836 827 ـ 902 893	ـ الهيمنة الارستقراطية العربية . ـ الثورات ضد حكم الاغالبة . ـ فتح صقلية وبلوغ الدولة الاغلبية طور الاستقرار ـ ظهور الدعوة الفاطمية الشيعية بالمغرب الاوسط	ـ الازدهار الاقتصادي والحضاري ـ حوالي 836 : بناء الجامع الاكبر بالقيروان . ـ حوالي 860 : تاسيس جامع الزيتونة بتونس ـ الامام سحنون وتاليفه للمدوّنة	ـ الخلافة العباسية وبلوغ الحضارة الاسلامية اوج ازدهارها . المامون (813 ـ 833) « دار الحكمة » ببغداد (832) : * بداية تقهقر الدولة العباسية بالشرق * تاسيس دول مستقلة في تخوم الخلافة : بنو طولون بمصر (868ـ905)

VI ـ الدولة الفاطمية (910 ـ 973)

التاريخ	الأحداث	المجتمع	المحيط التاريخي
910	دخول المهدي عبيد الله الفاطمي القيروان الاستيلاء على معظم بلاد المغرب	ـ انتشار المذهب الشيعي بافريقيا	ـ الامويون بالاندلس : الخليفة عبد الرحمان الثالث (912ـ961)
916 ـ 921	ـ تاسيس المهدية عاصمة الفاطميين		ـ تقهقر الدولة العباسية متواصل : الثورات الداخلية (القرامطـــــة) الامارات المستقلة في الشرق
935 ـ 946	ـ ثورة الخوارج بقيادة ابي يزيد صاحب الحمار ثم انهزام الثوار	ـ استئصال مذهب الخوارج (الا من بعض المناطق النائية : المزاب ـ جربــة)	* بنو حمدان في الشام والجزيرة (929 ـ 1004) * الاخشيديون في مصر (935 ـ 969)
946 ـ 969	ـ الاستقرار السياسي ـ توحيد المغرب ـ تحت نفوذ الفاطميين	الازدهار المادي والحضاري ابن هانـي (931 ـ 973)	* بنو بويه في فارس (932ـ998)
969	ـ احتلال مــصر		
973	ـ انتقال الفاطميين الى القــاهرة		

VII ـ الدولة الزيرية

التاريخ	الأحداث	المجتمع	المحيط التاريخي
973	ـ تولية بلكين بن زيري على افريقية (972ـ984)	ـ الازدهار المادي والحضاري	
1015	ـ انقسام الدولة الزيرية بين امراء افريقية وامراء قلعة بنـي حمـاد . ـ دولة المعز بن باديس (1016 ـ 1062)		
1016 ـ 1017	ـ تقتيل الشيعة بافريقية .	ـ صعوبات مادية وسياسية بافريقية .	ـ تدهور الامارة الاموية بالاندلس . وقيام ملوك الطوائف على انقاضها (ما بين 1012 / 1039)
1045	ـ المعزّ يقطع الصلة بالخليفة الفاطمي .		
1050 ـ 1052	ـ زحف بني هلال على افريقية .		ـ بداية الهجومات المسيحية بالاندلس (1054 ـ 1065)
النصف الثاني من القرن الحادي عشر والنصف الاول من القرن الثاني عشر	ـ انقسام افريقية الى دويلات مستقلة (بنو خرسان بتونس وبنو زيري بالمهدية ...) فرض نظام الحماية على جانب من المدن الساحلية التونسية من قبل النورماندين (ما بين 1130 و 1160 تقريبا) .	ـ تقلص الحضارة المدنية . ـ انهيار الدولة الزيرية وتقسيم بلاد افريقية ـ هيمنة حضارة القبائل الرحل . ـ انتشار النّمط الاقتصادي ـ الاجتماعي القبلي في دواخل بلاد المغرب . ـ تقهقر الحضارة المدنية والحياة الاقتصادية بصفة عامـة .	ـ حركة المرابطين بالمغرب الاقصى (بين 1040 و1060) : انتصارهم بقيادة يوسف بن تاشفين (1061 ـ 1106) . ـ ظهور الاتراك السلاجقة بالشرق (1032) السلطان طغرل باك ببغداد(1055) ـ افتكاك النورمنديين لصقلية (1061 ـ 1091) ـ انتصار المرابطين بالمغرب الاقصى

			والاندلس (1086 : زلاقة) قيام الحركة الموحدية في المغرب الاقصى حوالي 1120 ـ 1130 وشروعها في توحيد بلدان المغرب والاندلس تحت لوائها (1130 1160) . ـ يقظة اروبا المسيحية وتوسعها الحربي والاقتصادي في البحر الابيض المتوسط : استيلاء الصليبيين على القدس في 1099 وتاسيس المملكة اللاتينية فيها .
1159 ـ 1160	ـ فتح عبد المؤمن بن علي الخليفة الموحدي لافريقية وطرد النورمانديين من المدن الساحلية واخضاع القبائل الهلالية لنفوذه .	ـ ابلال الحضارة في حدود المدن الساحلية (تونس) ...	ـ توحيد المغرب الاسلامي من طرابلس الى الاندلس على يد الموحدين : انتصاراتهم على المرابطين (1147) وعلى الهلاليين (1152) وعلى النورمانديين بالمهدية (1160) وعلى الصليبيين بالاندلس (آلأرك 1196) . ـ الحروب الصليبية في الشرق والاندلس .

اواخر القرن الثاني عشر واوئل القرن الثالث عشر	انحلال السلطة الموحدية بافريقية : عهد المرتزقة (قارقوش) والمرابطين بني غانية (1184 ـ 1209) . ـ 1207 : تسمية عبد الواحد بن ابي بكر بن ابي حفص الهنتاتي واليا على تونس .	ـ نشاط المدن الساحلية النسبي وانتشار الحضارة الموحدية داخلها .	بداية تقهقر الدولة الموحدية في بداية القرن الثالث عشر (هزيمة العُقَب في 1212) . ـ زحف المسيحيين على الممالك الاسلامية بالاندلس واستيلائهم على قرطبة (1236) وعلى اشبيليا (1248) . ـ الايوبيون بمصر والشام (1169 ـ 1260) واسترجاعهم للقدس على يد صلاح الدين (1187) .

VIII ـ الدولة الحفصية (حوالي 1230 ـ 1574)

التاريخ	الأحداث	المجتمع	المحيط التاريخي
1228 ـ 1236	ـ احراز الحفصيين على استقلالهم بتونس وافريقيا : ابو زكرياء اول امير مستقل		ـ انحلال الدولة الموحدية بالمغرب ـ انحلال الدولة الايوبية بمصر وقيام دولة المماليك بعدها (حوالي 1250) .
1253	ـ ابو عبد الله المستنصر الحفصي يتلقب بلقب « امير المؤمنين » . ـ افريقية الحفصية هي الدولة الاسلامية الوحيدة التي بقيت قائمة الذات في ذلك العهد (في 1259 ـ 1260)ـاعتراف بلدان الشرق والمغرب الاسلامية لمدة وجيزة بخلافة المستنصر الحفصي .	ـ نهضة اقتصادية وحضارية في اطار المدن الساحلية والمناطق التابعة لها . ـ انتشار الحركة الصوفية في افريقيا : سيدي ابو سعيد ـ سيدي محرز بن خلف ـ سيدي ابو الحسن الشاذلي ...	ـ انقراض العباسيين بالشرق(احتلال بغداد وتحطيمها على يد المغـــول) ـ انقراض دولة الهوهنشتاوفن باروبا الوسطى وجنوب ايطاليا وصقلية (حوالي 1250) . زوال الدولة الموحدية (1269) وتعويضها بدول محلية : بنو مرين بالمغرب وبنو عبد الواد او بنو زيان بالمغرب الاوسط (عاصمتهم تلمســان) . ـ نهضة المدن التجارية الايطالية
1270	ـ الحملة الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع واخيه		

1277 ـ 1370	قرن ازمات ومحن : حروب داخلية وهجومات خارجية (منها احتلال بني مرين لتونس سنة 1347 وسنة 1357 وطاعون جارف) .	ـ ولادة عبد الرحمان بن خلدون سنة 1332 بتونس ـ مغادرته لها سنة 1352 . ـ الامام ابن عرفة (1316ـ1401) وتاليفه للمختصر	ـ هيمنة بني مرين بالمغرب ـ تقلص الاندلس الاسلامية امام الزحف المسيحي («الريكونكيستا»). ـ دولة بني زيان المتعثرة بتلمسان . ـ قوة المماليك بمصر والشام . قضاؤهم على آخر ممتلكات لاتينية بالشرق (1291) .
1370 ـ 1488	الاستقرار السياسي في عهد ابي العباس (1370 ـ 1394) وابي فارس (1394 ـ 1434) ـ وابي عمر وعثمان (1394ـ 1488) .	ـ علاقات تجارية مع المدن الايطالية ـ بعث القرصنة ـ تبلورت في هذه الفترة أهم الملامح لحضارة العصور المتأخرة . ـ وفاة ابن عرفة سنة 1401 ـ وفاة ابن خلدون (بمصر) سنة 1406	ـ استيلاء العثمانيين على القسطنطينية (1453) وعلى جانب من اروبا الجنوبية الشرقية .
نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر	ـ الازمة الحفصية في عهد مولاي محمد (متوفي في 1525) . ومولاي الحسن (1526 ـ 1542) ومولاي حميدة (1542 ـ 1569)	ـ تفكك المجتمع تحت تأثير القوى الانفصالية (لا سيما القبائل) ونتيجة لضعف المدن والسلطة المركزية .	ـ استرجاع المسيحيين للاندلس نهائيا (1492) . وشنهم الهجومات على سواحل البلدان المغربية . ـ ظهور القراصنة الاتراك بشمال افريقيا . ـ الاكتشافات الكبرى (امريكا سنة 1492) وتأثيراتها الايجابية

			على بلدان اروبا الغربية . ـ النهضة باروبا . ـ التوسع العثماني في الشرق (مصر 1517) وفي المغرب (ولايــة الجزائر : 1518) .
1534 ـ 1535	ـ امتداد النزاع العثماني ـ الاسباني الى تونس ـ وهن الدولة الحفصية	ـ تقهقر المجتمعات المدنية وتقوي القبائل العربية	ـ عملاقا البحر الابيض المتوسط : السلطة العثمانية و « الامبراطورية » الاسبانية.
1553 ـ 1574	ـ الاحتلال العثماني التدريجي للبلاد التونسية انطلاقا من الجنوب .		ـ تمركز العثمانيين بالجزائــــر وطرابلس (1553) .
1569	ـ استيلاء العثمانيين على مدينة تونس .		ـ رد فعل ديني وشعبي بالمغرب الاقصى : وظهور السعديين (شرفاء من الجنوب) يقودون الجهاد ضد المسيحيين ويمدون سلطانهم على كامل بلاد المغرب الاقصى .
1573	ـ اسبانيا تعيد الكرة فتسترجع تونس .		
صائفة 1574	ـ اجلاء الاسبان من التراب التونسي نهائيا . ـ القضاء على الدولة الحفصية وانتصاب الحكم العثماني .		

IX ـ تونس في العهد التركي (1574 ـ اواسط القرن السابع عشر)

التاريخ	الأحداث	المجتمع	المحيط التاريخي
1574 ـ 1591	ـ الولاية العثمانية : سيطرة الضباط الاتراك السامين المرتبطين باسطنبول حتى على الباشا وهو الممثل الرسمي للسلطان .	ـ فرض طبقة « ارستقراطية » أجنبية على المجتمع « التونسي »ـاستمداد قواها من البحر : القرصنة . ـ عودة الامن الى المدن وبقاء البوادي شبه مستقلة على حالها السابق .	ـ اشتغال الاتراك والاسبان بميادين بعيدة عن البحر الابيض المتوسط ـ بداية ازمة كلتي الامبراطوريتين .
1591	ـ ثورة الاتراك الانكشارية على ضباطهم السامين . ـ تجربة « الديمقراطية العسكرية » (1591 ـ 1598) .	ـ أزمة واضطرابات في مستوى المدن .	ـ أزمة ذات صبغة اقتصادية تعمّ بلدان البحر الابيض المتوسط .
1598 ـ 1610	ـ انفراد عثمان داي بالحكم . ـ بداية تنظيم شؤون البلاد الادارية . ـ تمتّع الإيالة التونسية بالاستقلال الفعلي (لا القانوني) ازاء الاستانة . ـ ربط علاقات سلمية مع الدولة الفرنسية نزولا عند رغبة هذه الدولة وتجارها (1604 ـ 1605) .	ـ هيمنة الطبقة التركية العسكرية . ـ بداية أخذ مصالح الأعيان الأهالي من المدن بعين الاعتبار . ـ استرجاع الحضارة المدنية قواها المادية والأدبية شيئا فشيئا . ـ وفود الأندلسيين المطرودين من اسبانيا على القطر التونسي . ـ ازدهار نشاط القرصنة بفضل الأتراك ومن أسلم من النصارى .	ـ بداية توسّع رأس المال التجاري الأروبي . ـ رد فعل الدول المغربية : القرصنة . ـ عجز تركيا على استرجاع نفوذهـا الحقيقي في الايالات المغربية . ـ قرار ملك اسبانيا بإجلاء المسلمين الأندلسيين عن بلادهم (1609)

1610 ـ 1637	ـ عهد يوسف داي : هيمنة الأتراك ومن أسلم من النصارى وبعض الأعيان من الأهالي . ـ حروب ضدّ أتراك الجزائر وضبط الحدود بين الولايتين (1614 ـ 1628) . ـ ظهور البايات المراديين : مراد كورسو (1628 ـ 1631) فابنه حمودة باشا (بعد 1631) . ـ شروع هؤلاء البايات في إخضاع القبائل والمقاطعات المستقلة إلى حكمهم .	ـ تقوّي نشاط المدن والبوادي التابعة لها بفضل التجارة والصناعة والفلاحة المستقرة وعلى يد الأندلسيين وجانب من الأهالي ـ ازدهار نشاط القرصنة متواصل . ـ توطيد العلاقات بين الواجهة الساحلية « التونسية » والميدان الخارجي البحري : يصير الريال الاسباني (وهو العملة الدولية العالمية) العملة النافقة في المدن التونسية وفي القطاع الساحلي حوالي 1630 . ـ تعامل صنف من الحكّام (منهم المراديون) مع رأس المال التجاري الاوروبي .	ـ استفحال الازمة التركية والاسبانية ـ نمو الدول الأروبية ذات النشاط التجاري البحري : فرنسا وانقلترة وهولاندة . توطيد علاقاتها مع البلدان غير الأروبية (منها بلدان شمال افريقيا) ـ بداية حرب الثلاثين سنة باروبا القارية .
من حوالي 1630 الى حوالي 1650	ـ هيمنة الداي اسطا مراد الجنوي (1637 ـ 1640) ثم احمد خوجة (1610ـ1647) ـ تقوي البايات المراديين : حمودة باشا (1631 ـ 1666) . ـ قيام البايات المراديين بحروب طاحنة ضد القبائل العتيدة المستقلة واخضاع كامل البوادي الى الحكم المركزي بتونس (1628 ـ 1645)	ـ نمو طبقة الاعيان الاهالي بالتحالف مع القطاع « المدني » من الطبقة الحاكمة « التركية » (البايات المراديين مثلا) ودخول هؤلاء الاعيان في خدمة الدولة . ـ نهضة الاقتصاد والمجتمع في المدن وفي المناطق التابعة لها . ـ النهضة الحضارية والعمرانية .	ـ تواصل التوسع الراسمالي التجاري الاروبي في البحر الابيض المتوسط (فرنسي ـ انقليزي ـ هولندي) .. ـ نشاط الجالية اليهودية بشمـــال افريقيا وبايطاليا (القرانة) . ـ الحروب الاروبية لا سيما « حرب الثلاثين » سنة (1617 ـ 1648)

	ـ ترسيخ النظام الاداري والعسكري في داخل البلاد على يد المراديين . ـ تأسيس مرسى حربية بغار الملح (حوالي 1640) .	ـ توطيد العلاقات البحرية والتجارية الى جانب نشاط القرصنة المتواصل . ـ ادماج البوادي داخل نظام يسيطر عليه اعيان المدن والطبقة الحاكمة « التركية » . ـ الازمات الديمغرافية (الاوبئـة) .	ـ الثورات بالجزائر (ثورة « القبائل » وثورة « الكوارغلية »).

التاريخ	الأحداث	المجتمع	المحيط التاريخي
1650 تقريبا ـ 1675	ـ تفوق الباي المرادي حمودة باشا (المتوفي في 1666) ثم ابنائه مراد الثاني ومحمد الحفصي (حتى 1675) على الداي والطائفة العسكرية التركية ـ ثورة هذه الطائفة ضد البايات المراديين وفشلها في 1673 ـ رضوخ الارياف الى سياسة الهيمنة والاستغلال المرادية	ـ ازدهار المجتمع المدني وحضارته : النشاط الصناعي (الشاشية ...) والتجاري يطغى على نشاط القرصنة . ـ استتباب الامن يشجع على استثمار الاراضي لصالح اسياد المدن والحكام ـ النهضة « العلمية » (علوم الدين) والمعمارية	عصر « المركنتيلية » mercantilisme باروبا الذي تمثل في تكثف العلاقات التجارية بين فرنسا والبلدان الشرقية ومنها تونس . ـ لويس الرابع عشر بفرنسا : سياسة التهديد ـ ظهور الدولة العلوية بالمغرب الأقصى ـ الانتفاضات السياسية بالجزائر
1675 ـ 1686	ـ الحروب الاهلية بتونس : حرب الاخوين محمد وعلي ابني مراد الثاني . ـ محاولة الداي احمد شلبي الفاشلة (1683 ـ 1686) . ـ استنجاد المراديين باتراك الجزائر ضد الداي شلبي المهيمن في تونس العاصمة ـ حصار تونس (1685 ـ 1686) ـ انتهاء الحرب بمقتل احمد شلبي ثم الباي علي	ـ ازمات ديمغرافية (وباء 1675ـ1676) واقتصادية (مجاعات ـ غلاء ...) . ـ اضعاف الطبقة « الارستقراطية » التركية ـ دخول بعض القبائل المحاربة الميدان السياسي بتحالفها مع القادة ـ 1681 ـ 1682 : ابن ابي دينار « المؤنس في تاريخ افريقية وتونس »	ـ الازمة الاقتصادية العالمية (« ازمة القرن السابع عشر ») وانعكاساتها على القطاعات الساحلية من البلدان غير الاروبية المتعاملة معها

أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر	ـ ازمات متعددة في عهد : محمد باي (1686 ـ 1696) ورمضان باي (1696 ـ 1699) ومراد الثالث « بوبالة » (1699 ـ 1702) ـ مجيئ اتراك الجزائر الى تونس واحتلالها (نوفمبر 1694) وتنصيب الداي طاطار بها ـ « حكم طاطار بالقصبة » (نوفمبر 1694 ـ جوان 1695) : طغيان وسفك دماء ـ فشل طاطار. ـ مراد « بوبالة » الطاغية المجنون : خاتم عقد المراديين (1702) ـ محاولة ابراهيم الشريف الفاشلة المتمثلة في ارجاع الهيمنة للعنصر التركي (1702 ـ 1705) .	ـ ازمات الاقتصاد والمجتمع لا سيما في المدن وفي المناطق المرتبطة بها ـ ارتباط بعض القطاعات (مثل الشواشيين) بالتجارة الخارجية الاروبية ارتباطا متينا .	ـ حكومة لويس الرابع عشر بفرنسا * سياسته الحربية * سياسته المركنتيلية ـ رسوخ الحكم العسكري التركي بالجزائر وسياسته الحربية ازاء جيرانه . ـ حروب مولاي اسماعيل بالمغرب ضد القوى الانفصالية ـ الازمة الاقتصادية العالمية متواصلة ـ بداية « حرب خلافة اسبانيا » باروبا بين فرنسا والنمسا وانقلترة (1700)
1705	ـ الحرب « التونسية ـ الجزائرية » : هزيمة ابراهيم الشريف وأسره . ـ نجاح حسين بن علي الباي الجديد ورئيس المقاومة ضد «الجزائريين» ـ طردهم من البلاد التونسية . ـ تغلب حسين بن علي على الداي محمد الأصغر ثم على ابراهيم الشريف (اوائل سنة 1706)	ـ مقاومة اهل مدينة تونس لاترا ك الجزائر الغزاة : نشاة شبه وعي « وطني » محلي استغله حسين بن علي لمقاومة الاعداء ولفرض نفوذه .	ـ عدم تدخل السلطنة العثمانية بشمال افريقيا . ـ اشتغال الدول الاوروبية بحروبها . ـ رجوع الاستقرار السياسي في الجزائر (حوالي 1710) : هيمنة الدايات . وفي طرابلس : استيلاء آل قارمانلي على الحكم بين 1711 ـ 1714

XI _ الفترة الاولى من العهد الحسيني

التاريخ	الأحداث	المجتمع	المحيط التاريخي
1705 ـ 1728	ـ تدعيم حكم حسين بن علي « الملكي » بتحالفه مع الاعيان من كل اصنافهم وبفرض ارادته داخل البلاد . ـ انتهاج سياسة استغلالية ازاء الرعايا في الارياف : سياسة « المشترى » ـ الثورات المحدودة ـ أبعاد علي ابن أخ الباي عن الحكم بتسميته باشا (1725) .	ـ رجوع الامن الى البلاد ونهوض الحياة الاقتصادية من جديد . ـ تدعيم مكانة الاعيان من البوادي داخل الهيكل السياسي والاجتماعي . ـتدعيم العلاقات التجارية مع بعض الدول الاوروبية لصالح البايلك وبعض الاصناف الاجتماعية (التجار الكبار ـ الشواشية ـ اللزامة الكبار . . .) ـ محاولة تركيز بعض التقنيات والافكار الاوروبية بالبلاد التونسية : فشل معظم التجارب في هذا الميدان (المطبعة العصرية ـ معمل الصابون . . .) و نجاح البعض منها (الصناعات الحربية ـ السياسة « المركنتيلية »)	ـ الحروب الاروبية وافتقار بعض الدول المسيحية الى المواد الغذائية الشمال افريقية (حتى 1714ـ 1715) ـ محاولة اسطنبول الفاشلة فرض حاكم موال لها بتونس : محمد بن مصطفى في 1708 ـ نمو التجارة الاوروبية بعد 1715 ـ فرض اسطنبول معاهدة صلح بين الامبراطرية النمساوية و ولايات شمال افريقيا : تضاؤل مداخيل القرنصة (1725)
1728 ـ 1740	الحروب الاهلية ـ ثورة علي باشا الاولى وفشلها (1728 ـ 1729) ـ مناصرة اتراك الجزائر لعلي باشا وايصاله الى عرش تونس بعد انتصارهم على حسين بن علي بسمنجة (1735 ...	ـ انقسام البلاد الى شقين : ـ حسيني (القيروان ـ مدن الساحل الكبرى ـ بعض القبائل مثل جلاص واولاد عون) . ـ باشي (الجبل وسلات ـ بعض قرى ساحلية مثل اكودة ـ عدة قبائل كاولاد عمار وماجر)	ـ بداية نمو أوروبا الاقتصادي . ـ الازمة السياسية بالجزائر (المنجرة عن افتكاك الاسبان لمدينة وهران 1732) .

	- الحرب الاهلية بين علي باشا (بتونس العاصمة) وحسين بن علي (بالقيروان) وانتهاؤها بانهزام الباي حسين ومقتله (سبتمبر 1735 - ماي 1740) . - سياسة علي باشا الدكتاتورية (سياسة عسكرية)	- اضطراب الحياة الاقتصادية ولا سيما التجاريـة .	- اضطرابات بالمغرب الأقصى بعد وفاة مولاي اسماعيل (سنة 1727) .
1740 - 1756	- عهد علي باشا . - افتكاكه لمحطتي التجارة الاروبية : طبرقة (من يد الجنويين) وتامكرت Cap Nègre (من يد الفرنسيين) في 1741 - الحرب التونسية الفرنسية (1741 - 1742) وانتهاؤها بمرضاة علي باشا . - سياسة علي باشا الداخلية الدكتاتورية تثير غضب جانب وافر من سكان البلاد (العساكر الاتراك وعدة قبائل) . - الحملة الجزائرية الفاشلة في 1746 . - الحملة الجزائرية الثانية الناجحة في 1756 .	بداية النمو الديمغرافي والاقتصادي في البلاد - تدهور هيمنة الاتراك الاجتماعية ونمو طبقة اعيان محليين بفضل العلاقات التجارية الخارجية وبفضل خدمة المخزن . - تشييد بناءات جديدة فاخرة بقصر باردو (المحكمة والقبة الخضراء ...) - جلب نسخة من مقدمة ابن خلدون الى تونس حيث كانت مجهولة . - الشاعر الـورغـي بتونس	- حرب « خلافة » النمسا باوروبا (1740 - 1748) التي اضعفت مكانة المملكة الفرنسية بالبحر الابيض المتوسط . - ظرفية اقتصادية متقلبة بالبحر الابيض المتوسط (ارتفاع اسعار الحبوب ما بين 1740 - 1750 وانخفاضها بعد هذا التاريخ . - استقرار حكم الدايات بالجزائر ومحاولتهم فرض اتاوة على بايات تونس .
1756	- هجوم امحال الجزائر على تونس مناصرة لابني حسين بن علي - محمد الرشيد وعلي - احتلال مدينة تونس (واباحتها للعسكر) - مقتل علي باشا وتعويضه بابن عمّه محمد الرشيد(1756 - 1759).	- نهب ذخائر الدولة وارزاق اهل مدينة تونس - نمـو الوعي « الوطني » بتونس العاصمة .	- بداية « حرب السبع سنوات » بين فرنسا وانقلترة . - دايات الجزائر يفرضون اتاوة على بايات تونس .

1759 ـ 1782	ـ عهد علي باي (ابن حسين بن علي) ـ 1759 ـ 1762 : ثورة جبل وسلات بقيادة اسماعيل حفيد علي باشا وفشلها ـ آخر ثورة كبرى في القرن الثامن عشر . ـ تمركز حكم علي باي بالبلاد بفضل سياسته « الليبيرالية » المرنة وتحالفه مع الاعيان وبسبب ظرفية اقتصادية عالمية ملائمة ـ الحرب « التونسية ـ الفرنسية » (1769 ـ 1770) اثر احتلال فرنسا لجزيرة كرسيكا ـ شروط الصلح المتساوية وتمتين العلاقات « التونسية ـ الفرنسية » بعد هذه الحرب . ـ العلاقات غير المتساوية مع حكام الجزائر	ـ نمو البلاد الديمغرافي والاقتصادي المتواصل ـ الظرفية الاقتصادية الحسنة للغاية (من 1765 تقريبا الى 1775) . ـ مجاعة 1777ـ 1778 ـ نمو طبقة الاعيان المحليين من تجار كبار و « شواشية » ولزّامة كبار الخ.. وتداخل مصالحهم مع مصالح الدولة ـ « النهضة الادبية والعلمية » : * تاليف محمد بن محمد الصغير بن يوسف البـــــاجي **المشرع الملكي في سلطنة اولاد علي تركي** (1771) . * تاليف حمودة بن عبد العزيز **الكتاب الباشي** (1776 ـ 1777) . الشعراء : الورغي ـ الغراب ...	ـ ازدهار الحياة الاقتصادية والتجارية على الصعيد العالمي (1750 ـ 1774) . وبداية الثورة الصناعية بانقلترة (1760 ـ 1780) وافتقار أوروبا لقموح شمال افريقيا . ـ علاقات متينة ما بين الراسمالية التجارية الاوروبية والواجهة الساحلية من البلدان غير الاوروبية (الحكام والتجار الكبار) . ـ حرب « السبع سنوات » بين فرنسا وانقلترة (1756 ـ 1763) . ـ حرب « استقلال الولا يات المتحدة الامريكية » (1774 ـ 1783) . ـ انهزام السلطنة العثمانية امام القوات الروسية (1768ـ1774) ـ الاستقرار السياسي بسائر بلدان شمال افريقيا من طرابلس الى المغرب الاقصى .

- الاستقرار الداخلي بفضل سياسة التحالف مع الاعيان المحليين - تمتن الحكم المركزي داخل البلاد	سنوات الخصب والازمات الخطيرة (طاعون 1784 - 1785 ومجاعة 1804 - 1805	الاقتصادية (في الثمانينات) والسياسية(من 1789 الى 1815)
- الانتصارات الخارجية : * على البندقية (1784 - 1792) * على طرابلس (1793 - 1794) * على حكام الجزائر (1807) - تدعيم استقلال البلاد السياسي والاقتصادي ازاء دولة الجزائر والدول الاوروبية . - تبلور « شبه أمة » بتونس . وفاة حمودة باشا (سبتمبر 1814)	- استغلال الظرفية السياسية والاقتصادية الاوروبية لتنشيط القرصنة والتجارة البحرية . - ازدهار القطاع السياسي - الاجتماعي المرتبط بالنشاطات البحرية : الباي - وزراؤه (يوسف صاحب الطابع) - « القياداللزامة »(ابن عياد - الجلولي ...) - التجار الكبار (الحاج يونس بن يونس الجربي ...) - ظهور طبقة سياسية - اجتماعية محلية موحدّة للبلاد .	- الحروب الاوروبية (1792-1815) - احتياج اوروبا الى حبوب شمال افريقيا وموانيها . - صعوبات السلطنة العثمانية وانهزاماتها (1783 - 1792) - محاولتها الفاشلة بطرابلس (1793 - 1794) . - ظهور محمد علي بمصر . - الازمات الداخلية الجزائرية المنجرة عن ثورة الاهالي ضد الحكم الاستبدادي التركي (لا سيما بين 1803 - 1805) - ازمات السلطنة المغربية ودولة قارمانلي بطرابلس .

XII ـ ازمة القرن التاسع عشر

التاريخ	الأحداث	المجتمع	المحيط التاريخي
1815 ـ 1830	ـ استعانة الكتلة الحاكمة برجال جدد في عهد : * محمود باي (1814 ـ 1824) * وحسين باي (1824 ـ 1835) « الانذارات »الاوروبية : حملة لورد اكسماوث (1816) وحملة فريمنتل وجوريو (1819) ـ طاعون 1818 / 1819 ـ الثورات الداخلية (1817 ـ 1825) ... *استدانة حكومة الباي لدى التجار الاوروبيين :	ـ الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية ـ اضعاف العُملة التونسية (1824ـ1825) ـ التدخل الراسمالي الاوروبي وتأثيراته السيئة على الاقتصاد والمجتمع بتونس . ـ الرجوع الى القطيعة بين الدولة وإطارات المجتمع المحلية .	ـ تواصل الثورة الصناعية بأوروبا . ـ التوسع الاوروبي في ما وراء البحار بعد انتهاء الحروب النابليونية في 1815 : * التدخل التجاري والمالي بتونس * التدخل المسلح في الجزائر واحتلال الفرنسيين لها سنة 1830 . ـ تقهقر الامبراطورية العثمانية متواصل : « حرب استقلال الاغريق » (1821 ـ 1829) ومعركة نافاران Navarin البحرية (1827) . ـ الازمات الجزائرية ومحاولة علي خوجة الرامية الى تبديل النّظام

			ـ انغلاق البلاد المغربية بقطع علاقاتها مع الاوروبيين .
1830 ـ 1837	ـ تدارك الازمة السياسية (نسبيا) في عهد وزارة المملوك شاكير صاحب الطابع (1829ـ1837) ـ بداية سياسة الاصلاحات		* توغل الفرنسيين داخل البلاد الجزائرية : احتلال قسنطينة (1837) ووصول النفوذ الفرنسي الى تخوم البلاد التونسية . * ظهور الامير عبد القادر في المقاطعة الغربية الجزائرية . * احتلال تركيا للبلاد الطرابلسية (1835) وتهديدها لاستقلال البايات بتونس .
1837 ـ 1855	عهد احمد باي : ـ وزارة مصطفى خزندار (ابتداء من 1837) ـ سياسة « الاصلاحات » الحربية والادارية والاقتصادية وانعكاساتها المالية الوخيمة . ـ الاصلاحات الحضارية : تحجير الرق (1846) ـ مدرسة باردو الحربية (1840) ـ تنظيم التعليم بجامع الزيتونة (1842) ـ زيارة احمد باي الى فرنسا (1846) ـ الازمة المالية بتونس (بعد 1850)	ـ ازدياد التدخل التجاري والمالي الأوروبي وتأثيراته السلبية : صعوبات الدولة المالية ـ افلاس طبقة الاعيان الاغنياء و « القياد اللزامة » الكبار (آل الجلولي في 1830 1835 وآل ابن عياد في 1852) ـ السياسة الجبائية المنهكة لقوى البلاد والثورات الداخلية ـ وباء الكوليرا والنكبة الديمغرافية (1849 ـ 1850)	* الخطر الفرنسي على الحدود الغربية التونسية والخطر العثماني من الناحية الليبية (1835 ـ 1837) * التنظيمات الخيرية بتركيا (1839 و 1856) ـ حكم نابليون الثالث بفرنسا (1851)

	* التجاء الاغنياء الى حماية الدول الأوروبية (ابتداء من 1847)	ـ الحركة الثقافية : ابراهيم الرياحي ـ الباجي المسعودي ـ محمد بن سلامة .	
1855 ـ 1859	ـ عهد مَحمد باي والوزير مصطفى خزندار ـ قانون « الاعانة » اي المجبى (1856) ـ 1857 : عهد الامان ـ العدول عن معظم الاصلاحات .	ـ التياران : الاصلاحي (خير الدين ـ ابن ابي ضياف ـ الجنرال رشيد ..) والتقليدي : « الرجعي » (الباي مَحمد ـ بيرم ...)	ـ ضغط الدول الأوروبية على الامم الاخرى لقبول « سياسة الاصلاحات » اي الانفتاح للتأثيرات المادية والمعنوية الأوروبية : * خط « همايون » بتركيا (1856) * « عهد الامان » بتونس (1857)
1859 ـ 1864	ـ تولي محمد الصادق باي الحكم وبقاء مصطفى خزندار وزيرا أكبر . ـ استئناف سياسة « الاصلاحات » ونتائجها السلبية : * الدستور التونسي (1861) ـ « الرائد الرسمي » . * المشاريع العصرية المنهكة لمالية الدولة : اشتراء الأسلحة الاوروبية ـ مشروع جلب ماء زغوان الى تونس (وقد منح لشركة فرنسية) ـ التلغراف بين تونس والجزائر . * اللجوء الى القروض الخارجية (إرلانجي) ومشكلة تسديد فائض الديون (1863) . * الامتيازات التي انتزعتها الدول الاوروبية من باي تونس : اقتصادية وسياسية . ـ الصعوبات المالية المفضية الى سياسة جبائية مجحفة	ـ نتائج التدخل الرأسمالي الاوروبي الوخيمة على المجتمع التونسي . * استدانة منتجي الحبوب والزيوت . * إفلاس البورجوازية المحلية (الا الفئة الخادمة مصالح الاروبيين والمحتمية بهم) . ـ نتائج « الاصلاحات » السلبية : * عدم تماشيها مع الأوضاع الاجتماعية الداخلية . * تكاليفها الباهظة المجحفة بمالية الدولة وبالرعية . * معارضة معظم أفراد الشعب لها وعزلة رجال الاصلاح .	ـ تحول الرأسمالية الاوروبية من تجارية الى مالية . ـ ضغط الدول الاوروبية على الدول الأخرى متزايد : في الشرق (تركيا مصر ..) وفي شمال افريقيا (فتح المغرب الاقصى الى التجارة أمام التأثيرات الاروبية) . ـ مشروع « المملكة العربية » (نظام حماية) بالجزائر وفشله .

1864 ـ 1869	ـ استفحال الأزمة بتونس : * ثورة علي بن غذاهم (1864) * سياسة القمع المخرّبة للبلاد والقاطعة لآخر صلة بين الدولة والرعايا . * العدول عن سياسة « الاصلاحات » * ازمة 1867 وانعكاساتها المالية والسياسية * العجز المالي وتنصيب لجنة وصاية دولية (« الكوميسيون المالي ») .	ـ هزيمة كتلة المصلحين . ـ تدهور وضع الاعيان الأهالي وتفكك المجتمع ـ إزمة 1867 (« بوبرّاك وبوشلاّل ») وقضاؤها على آخر قوى البلاد الديمغرافية والاقتصادية .	ـ الرأسمالية الأوروبية وسياستها التوسعية في العالم . تحقيق الوحدة الألمانية والايطالية (بصدد الانجاز) . * الازمة الاقتصادية عامة في كامل بلدان شمال افريقيا . * فتح قنال السويس (1859 ـ 1869) . وتسرب الراسمالية الأوروبية الى مصر.
1870 ـ 1877	ـ الابلال النسبي بتونس : * ابتعاد « الخطر » الفرنسي باندلاع الازمة بفرنسا نفسها بعد 1870) . * سقوط الوزير مصطفى خزندار وتولية خير الدين وزيرا اكبر (1873) ـ وزارة خير الدين وسياسته الاصلاحية في الميدان الاداري والمالي والاقتصادي والثقافي : (تاسيس الصادقية 1875) ـ سقوط خير الدين (1877)	ـانتعاش الاقتصاد التونسي (بصفة نسبية) ـ انتهاء احمد بن ابي ضياف من تاليفه **اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان** (1871) .	ـ الحرب الفرنسية ـ « البروسية » وانهزام فرنسا (1870) . ـ ازمة « الكومونة » والصعوبات السياسية بفرنسا (1871ـ1875) ـ تم انجاز الوحدة الألمانية والوحدة الايطالية (1870ـ1871) . * ظهور المطامع الايطالية بتونس ـ ثورة المقراني بالجزائر وقمعها : انتصار حزب المعمرين . ـ السياسة العثمانية الرامية الى تدعيم العلاقات مع « مقاطعاتها المستقلة » مثل تونس .

1878 - 1881	- استفحال الازمة التونسية من جديد في عهد وزارة مصطفى بن اسماعيل - التدخل الفرنسي والايطالي بتونس يحتد : * الخطوط الحديدية * اشتراء الاراضي (هنشير النفيضة)	- اشتداد الازمة الاقتصادية والاجتماعية تحت تأثير العوامل الداخلية والخارجية . - احتداد الازمة السياسية وتفاقم الغضب ضد حكم محمد الصادق باي ومصطفى بن اسماعيل اللامبالي .	- مؤتمر برلين (1878) وبداية سياسة الامبريالية الاستعمارية . - مؤازرة الدول الكبرى الاوروبية لسياسة فرنسا الاستعمارية بتونس ومناهضة ايطاليا لها .

XIII ـ تونس في عهد الحماية

التاريخ	الأحداث	المجتمع	المحيط التاريخي
1881	ـ احتلال البلاد التونسية : * معاهدة باردو (12 ماي 1881) * ثورة قبائل الوسط والجنوب بقيادة علي بن خليفة (جوان ـ ديسمبر 1881) .	ـ قبول المدن واعيانها للنظام الجديد ومناهضة القبائل له . ـ الحيرة تسود البلاد .	ـ قَانْبَطّة وجول فِيرِي زعماء السياسة الاستعمارية بفرنسا . ومناهضة الراي العام لتالك السياسة .
1881 ـ 1890	ـ تنظيم « الحماية » بتونس من الناحية السياسية (الاحراز على تخلي الدول الاروبية الاجنبية عن امتيازاتها بتونس لفائدة فرنسا) . ـ تنظيم الادارة الداخلية : دواليب « المراقبة » على الادارة التونسية وانشاء ادارات فنية فرنسية بحتة. تنقية الاطارات المحلية من العناصر المناهضة للاستعمار الفرنسي وتعويضها باطارات موالية . * تهيئة الاطار القانوني للاستعمار الاقتصادي : القانون العقاري (1885) .	ـ انسجام جانب قليل من الاعيان الاهالي مع الاوضاع السياسية والاقتصادية الناتجة عن الاستعمار. ـ استيلاء الشركات الراسمالية الفرنسية على جانب وافر من الاراضي التونسية (لا سيما بالشمال) . ـ تدعّم جانب الجالية الفرنسية وبداية هيمنتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية داخل البلاد ـ تاسيس اول صحيفة اصلاحية بتونس : **الحاضرة** (1888) وظهور اول صحيفة اخبارية . **الزُهرة** (1890) .	ـ 1882 ـ احتلال انقلترة لمصر ـ بداية « الثورة الصناعية » الثانية وتقوي السياسة الامبريالية . ـ السياسة الاستعمارية الفرنسية : احتلال الهند الصنية (1885) وفرض معاهدة حماية بمدغشقر (1885) . ـ بداية حركة النهضة الاسلامية : جمال الدين الافغاني ومحمد عبده (1882 ـ 1885) .
1890 ـ 1914	ـ انتصار السياسة الاستعمارية بتونس :	ـ الجالية الفرنسية وهيمنتها الاقتصادية	ـ اوج الهيمنة الامبريالية الأوروبية

	* الادارة المباشرة . * الاستعمار التجاري والعقاري . * هيمنة الحزب الاستعماري الفرنسي . ـ ردود الفعل التونسية : * حركة الاصلاح الثقافية (تاسيس الخلدونية في 1896 ـ تاسيس جمعية قدماء الصادقية في 1905ـ الصحافة التونسية) . * حركة الاصلاح السياسية : « الشباب التونسي » وعلي باش حانبة (1907 ـ 1912) . * حوادث الجلاز (7 نوفمبر 1911) وحادثة التراموي (فيفري ـ مارس 1912) ـ تشتيت حركة « الشباب التونسي » (مارس 1912)	والاجتماعية والسياسية . ـ ظهور نخب محلية متفتحة على العالم العصري : المثقفون المتتلمذون على الغرب (بوشوشة) وانصار النهضة (بوحاجب) ـ بداية انحطاط المجتمع التقليدي (القبائل اهل الصنائع التقليدية)	في العالم (حوالي 1900) . ـ بداية حركات مقاومة الهيمنة الاوروبية (حوالي 1905) بالشرق الاقصى . ـ حركة « تركيا الفتاة » بتركيا وحركة « الحزب الوطني » بمصر. ـ التطاحن بين الدول الامبريالية : فرنسا وانقلترة (حوالي 1898 ـ 1900) وفرنسا والمانيا (مسالة المغرب الاقصى : 1905ـ1911). ـ استيلاء ايطاليا على ليبيا (1911) واستيلاء فرنسا على المغرب الاقصى (1912) .
الحرب العالمية الاولى (1914ـ1918)	ـ تحجير كل نشاط سياسي ـ ايقاف « الوطنيين » (الجزيري ـ احمد توفيق المدني ...) ـ حركة المقاومة المسلحة بالجنوب (1916ـ1917)	ـ نمو طبقة الفلاحين الكبار (الطاهر بن عمار) ورجال الاعمال (محمد شنيق) من بين التونسيين . ـ العساكر التونسيون بفرنسا .	ـ اوت 1914 : اندلاع الحرب بين فرنسا والمانيا ـ تحالف تركيا مع المانيا * الدعاية الدينية ضد الاستعمار الفرنسي والانقليزي . * ردود الفعل الانقليزية : ثورة العرب في الشرق ضد الاتراك . ـ نوفمبر 1918 : انتهاء الحرب

			بانهزام المانيا وحلفائها . ـ تصريح ويلسون رئيس الولايات المتحدة حول حق الشعوب في تقرير مصيرها (1917) . ـ الثورة البولشفية في روسيا (1917)
1919 ـ 1925	ـ الحزب الحر الدستوري (اواخر 1919 وبداية 1920) ـ نشاطه : الوفود لدى السّلط . ـ بداية 1921 : تنظيم الحركة واوج قوتها . ـ افريل 1922 : الازمة السياسية وانتصار المقيم (بضغطه على الناصر باي) . ـ 1923 : مغادرة الثعالبي لتونس ـ 1924 ـ 1925 : محمد علي والحركة العمالية * تأسيس « جامعة عموم العملة التونسيين » * فيفري 1925 : ايقاف محمد علي وتعطيل التجربة النقابية التونسية الاولى . * اواخر 1925 : « القوانين الخادعة » واخماد الحركة السياسية .	* تغييرات المجتمع التونسي : القطاعات المتدهورة (الفلاحون الصغار ـ اصحاب الصناعات التقليدية) والقطاعات النامية (الفلاحون الكبار ـ رجال الاعمال ـ النخب المثقفة ثقافة عصرية ـ العمال ...) ـ « تونس الشهيدة » المنسوبة لعبد العزيز الثعالبي (1920) . ـ بداية النهضة الثقافية التونسية	ـ مساندة الشيوعيين لكفاح الشعوب الاسلامية ضد الامبريالية مؤتمر باكو : (1920) . ـ ثورة كمال اتاترك (1919ـ1923) ـ انتصارات حزب **الوفد** (1919 1922) والاستقلال الشكلي بمصر ـ احتلال الدول الاستعمارية لسوريا والعراق وفلسطين (1919 ـ 1920) ـ حرب الريف (1921 ـ 1926) محمد بن عبد الكريم وتاسيس « الجمهورية الريفية »
منعرج الثلاثينيات	ـ الازمة الاقتصادية العالمية ـ الاستفزازات الاستعمارية	ـ تجذّر التغييرات الهيكلية للمجتمع التونسي : * الفئات المتدهورة (« تونس الجائعة ») .	ـ انتصار الاستعمار الظاهري (قبيل 1930) . ـ الازمة الاقتصادية العالمية (1929ـ 1935) .

	- ردود فعل التونسيين : يقظة الحركة الوطنية : * « الدستوريون الشبان » : « العمل التونسي » (نوفمبر 1932) . * الحملة ضد التجنيس (1932 ـ 1933) * مؤتمر الحزب الدستوري وميثاق ماي 1933 اوت ـ نوفمبر 1933 : الانشقاق بين القادة الشبان (بورقيبة ـ الماطري) واللجنة التنفيذية للحزب الدستوري . * 2 مارس 1934 : مؤتمر قصر هلال وتاسيس الحزب الدستوري الجديد . - سياسة القمع ضد الدستوريين الجدد (سبتمبر 1934 ـ مارس 1936) .	* الفئات الناشئة ومنها النخبة المثقفة « تونس العصرية » . - الظرفية الاقتصادية القاسية بالنسبة للمنتجين (فلاحي الساحل ـ أصحاب الصنائع ...) - النهضة الثقافية : * تاليف الحداد : **العمال التونسيون** (1927) **وامرأتنا في الشريعة والمجتمع** (1930) . * « جماعة تحت السّور » الفنية . * الجمعيات الرياضية . . . - تأثيرات الازمة العالمية في البلاد التونسية ابتداء من 1932 ـ تدخل النخب المثقفة لتوسيع الافاق وتجذير العمل)	- استفحال الفاشيّة والنازية في اروبا - حركات مناهضة الاستعمار في العالم .
1936 ـ 1938	- الافراج عن القادة الدستوريين المعتقلين والسماح لهم باستئناف عملهم السياسي (مارس-ماي1936). - سياسة « اليد الممدودة » : البرنامج الادنى الذي قدمه الحزب الدستوري الجديد والآمال المعلقة على تحقيقه (جوان 1936 ـ جوان 1937) . - رجوع الثعالبي وصراعه مع بورقيبة (صائفة 1937) - تأزم العلاقات بين الحزب الدستوري الجديد	- غلو المعيشة وتذمر قطاعات الأجراء والمستهلكين . - تنظيم الحركة السياسية وانتشارها داخل البلاد على يد الحزب الدستوري الجديد . * يقظة التشكيلات السياسية الاخرى . - تعاظم الحركة العمالية والنقابية وانقسامها إلى نزعة نقابية بحتة ونزعة نقابية ـ قومية) .	- انتصار احزاب اليسار بفرنسا ووصول الجبهة الشعبية الى الحكم (ماي 1936) - الترضيات الى وطنيي مصر وسوريا - تعثر الجبهة الشعبية بفرنسا وفشلها (صائفة 1937 ـ افريل 1938) . - سياسة القمع بالمغرب والجزائر (صائفة 1937) .

	والسلط الفرنسية (صائفة 1936 ـ جانفي 1937) ـ التطاحن (فيفري ـ افريل 1938) وانتفاضة 9 أفريل . ـ ايقاف رؤساء الحزب الدستوري الجديد وإطاراته .		ـ تعاظم الخطر النازي باروبا (1935ـ 1939) والمسيرة نحو الحرب .
1939 ـ 1942	ـ حركة المقاومة السرية وسياسة القمع العسكري ـ انتصاب المنصف باي على العرش (جوان 1942) وتبنّيه للمطالب الدّستورية . ـ احتلال قوات المحور (الالمان والايطاليين) للبلاد التونسية (نوفمبر 1942)	ـ انعكاسات الاوضاع العالمية على البلاد التونسية .	ـ اندلاع الحرب العالمية الثانية (سبتمبر 1939) وانتصارات المحور ـ احتلال القوات الالمانية لفرنسا (جوان 1940) . ـ دخول الولايات المتحدة ثم الاتحاد السوفياتي الحرب ضد قوات المحور (1942) .
نوفمبر 1942ـماي 1943	ـ تونس في فترة الاحتلال الالماني ـ الايطالي * اطلاق سراح المساجين ومنح الاحزاب التونسية حريتهـــا . * الباي المنصف يتزعم الحركة الوطنية ـ وزارة شنيق والقرارات المتخذة لفائدة الاهالي . * رجوع بورقيبة الى تونس (افريل 1943) . ـ انتصار الحلفاء على جيوش المحور وافتكاكهم	ـ آلام الحرب ـ اغتنام ظروف الاحتلال لممارسة الحرية . ـ شعور معظم الشعب بالتعاطف مع الالمان .	ـ منعرج الحرب : بداية تقهقر قوات المحور (ستالنقراد في جانفي 1943 ـ انهزاماتها في ليبيا ثم في تونس) .

الفترة	الأحداث الوطنية	الظروف الداخلية	الأحداث الدولية
	البلاد التونسية (ماي 1943) . * فرض السلطة الفرنسية هيمنتها من جديد على البلاد التونسية . * عزل المنصف باي ونفيه (ماي 1943) * اعلان بورقيبة عن مناصرته للحلفاء ودعوة الشعب التونسي للعمل في هذا السبيل (جوان 1943) .		
1945 ـ 1949	ـ يقظة الحركة الوطنية ذات النزعات المتشعبة : * الحزب الدستوري الجديد وعودته الى نشاطه * الحزب الشيوعي الناشئ . * الحركة«المنصفية»المطالبة برجوع المنصف باي الى عرشه . * تاسيس « الاتحاد العام للعمال التونسيين » (جانفي 1945) * تكوين الجبهة التونسية المطالبة بالاستقلال الذاتي (فيفري 1945)	ـ ظروف اقتصادية صعبة . ـ اختلال التوازن بين عدد السكان وموارد الرزق. ـ سرعة تطور المجتمع التونسي تحت تأثير رجة الحرب العالمية والعوامل الخارجية : * تضخم عدد السكان في المدن وتغيّر عاداتهم . * توحيد المجتمع في تقدم محسوس	ـ انتصار الحلفاء ولا سيما الدولتين العملاقتين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي) المناهضتين للاستعمار الاوروبي . ـ تاسيس جمعية الامم المتحدة المعلنة عن مبدإ حرية تقرير المصير (1945) . ـ تاسيس الجامعة العربية (1945) ـ تحرر المستعمرات الأوروبية : * احرازسوريا ولبنان على استقلالهما
	* مغادرة الحبيب بورقيبة التراب التونسي لمواصلة الكفاح من الخارج (مارس 1945) * ظهور حركات شعبية مسلحة : « فلاقة »	* تغلغل الفكرة القومية في اعماق المجتمع التونسي .	* استقلال الهند (1947) * استقلال اندنيسيا (1949) * اعلان جمعية الامم المتحدة عن

الفترة	الأحداث		الأحداث الخارجية
	« المرازيق » (1943 ـ 1944) و « فلاقة زرمدين » (1945 ـ 1948) * كل التشكيلات التونسية تقوم بحملة مطالبة بالاستقلال (صائفة 1946) . * الاصلاحات الفرنسية ورفض المواطنين لها (1947) * « الاتحاد العام للعمال التونسيين » تصديه لسياسة القمع (اوت 1947) . * نشاط الحركة«المنصفية»(1946 ـ 1948) * موت المنصف باي (سبتمبر 1948) * تحمس التونسيين للمسألة الفلسطينية (1947 ـ 1948) .		استقلال ليبيا بعد عامين (1949) * حوادث مقاطعة قسنطينة الدامية (ماي 1945) ـ فشل المفاوضات الفرنسية ـ الفياتنام وبداية الحرب الهند الصينية (1946 ـ حرب فلسطين (1947ـ1948) ـ انتصار الشيوعيين بالصين (1949)
1949 ـ 1951	ـ رجوع بورقيبة الى تونس (سبتمبر 1949) واسترجاع الحزب الدستوري مكانته الاولى في حركة مقاومة الاستعمار . ـ التجربة الفرنسية ـ التونسية الثانية ـ وزارة شنيق / صالح بن يوسف المتفاوضة من اجل الوصول الى الاستقلال الذاتي اوت 1950 ـ 15 ديسمبر 1951		* احتداد حرب الهند الصنية * اندلاع حرب كوريا * ضعف الحكومة الفرنسية امام الحزب الاستعماري .
1952 ـ 1954	ايقاف بورقيبة وبداية المقاومة العنيفة (18 جانفي 1952)		ـ انتهاء حرب كوريا (1953)

	ـ الحكم العسكري بتونس وسياسة القمع بالساحل والوطن القبلي بالخصوص (فيفري 1952) ـ اغتيال فرحات حشاد من قبل « اليد الحمراء » (5 ديسمبر 1952) ثم اغتيال الهادي شاكر (سبتمبر 1953) ـ وزارة فوازار (سبتمبر 1953) ووزارة مزالي (مارس 1954) ـ المقاومة المسلحة في الارياف (بالساحل ونفزاوة والاعراض والشمال) ـ توسيع ميدان كفاحها (ربيع 1954) ـ حلول رئيس الحكومة الفرنسية ـ منداس فرانس ـ بقرطاج والاعلان عن الاستقلال الداخلي (31 جويلية 1954) .		ـ انقلاب نجيب وعبد الناصر بمصر (جويلية 1952) . ـ عزل السلطان محمد الخامس بالمغرب (اوت 1953) . ـ انهزام الامبريالية الاستعمارية الفرنسية بالهند الصينية : هزيمة ديان بيان فو (10 ماي 1954) ـ تشكيل حكومة منداس فرانس (18 جوان 1954) ودخولها في المفاوضات مع المقاومين الفيتناميين ومع قيادة الحركة الوطنية التونسية . ـ اندلاع الثورة الجزائرية (غرة نوفمبر 1954) .
1954 ـ 1956	ـ المفاوضات التونسية الفرنسية (صائفة 1954 20 مارس 1956) . * وزارة الطاهر بن عمار ـ المنجي سليم * ايقاف الحركة المسلحة (نوفمبر 1954)		ـ انتصار الوطنيين بالمغرب ـ الاعلان عن الاستقلال وانتصار السلطان محمد الخامس (نوفمبر 1955 ـ فيفري 1956)

	* رجوع بورقيبة من المنفى (1 جوان 1955) رفض صالح بن يوسف الاستقلال الداخلي والانشقاق داخل الحزب . * مؤتمر صفاقس وتغلب النزعة البورقيبية (15 نوفمبر 1955) المفاوضات والاحراز على الاستقلال التام 20 مارس 1956)		ـ انتصار احزاب اليسار بفرنسا (جانفي 1956) .

الفهارس

فهرس الاعلام

فهرس الاماكن

فهرس العبارات الدّالة

– أ –

– ب –

– ت –

– ث –

– ج –

فهرس المجموعات والاجناس

تم طبع هذا الكتاب بالمطابع الموحدة
مجموعة سراس
6، شارع عبد الرحمان عزام -1002 تونس
أفريل 1993

المؤلف :

من مواليد تونس سنة 1932. زاول تعليمه في المدرسة الصادقية ثم في الجامعة الفرنسية، فتحصل على التبريز وعلى دكتوراه الدولة في التاريخ.
درّس فترة من الزمن في المعاهد الثانوية ثم الجامعة التونسية من سنة 1964 الى يومنا هذا ما عدا أربع سنوات تفرغ أثناءها للبحث (من 1970 الى 1974).
محور اهتمامه الأساسي هو التاريخ الاجتماعي التونسي في عهد ما قبل الحماية وقد نشر عدة دراسات في هذا الباب في نشريات مختصة تونسية وأجنبية.
وكان موضوع أطروحته علاقة الدولة بالمجتمع في البلاد التونسية في عهد حسين بن علي (1705 ــ 1740 م).

الكتاب :

لم نقصد من خلال هذا العمل الرواية المفصلة ولا الوصف المدقق . فغيرنا من المؤرخين قد قام بذلك على أحسن وجه . فاكتفينا بالتذكير في ايجاز باهم الاحداث التي عرفتها البلاد التونسية وذلك أولا خلال النص ثم في الجدول العام في نهاية الكتاب .

كان شغلنا الشاغل التساؤل عن معنى الاحداث والتنقيب عن الخطوط الكبرى للتركيبة الاجتماعية والسياسية السائدة في كل فترة من فترات تاريخ البلاد عساها أن تساعدنا على فهم ذلك التاريخ .

لم نأت في هذا العمل الوجيز بحقائق نهائية لا جدال فيها وانما حاولنا بقدر الامكان أن نخرج تاريخ تونس من المنهج التقليدي المعهود (المتمثل في الرواية والوصف) وأن نجعل منه ، حسب التصورات الحديثة لفن التاريخ ، مجموعة تساؤلات وتآويل « افتراضية » .

حاولنا أساسا أن نقاوم « سبات العقل » وأن نثير الأفكار بل نستفزها فان أصبنا بعد الاجتهاد فلنا اجران والا فللقارئ الجدال .

رقم الناشر 01 0027

ISBN 9973 - 19 - 029 - 7